بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وعلى التابعين بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فإن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين قد قرر أن ينظم مؤتمراً عالمياً عن التعليم الشرعي وسبل ترقيته بتاريخ ٨، ٩، ١٠ رجب ١٤٣٧ الموافق ١٥، ١٦،١٧ نيسان/ أبريل ٢٠١٦ بالعاصمة القطرية الدوحة، ووجه الاتحاد ـ الذي نتشرف بعضويته منذ عَقَد اجتماعه العالمي الأول في مدينة إستانبول ـ دعوةً كريمة إلينا للحضور والمشاركة في هذا المؤتمر، وكَلَّفنا بإعداد بحث متعلق بأحد محاوره، فلبينا الدعوة، ووافقنا على الطلب.

ومما يجدر التنبيه عليه أن لي عناية بموضوع المؤتمر منذ عقود من الزمن، وكنت قد جهزت مادة كتاب عن الموضوع قبل نحو عشرين سنة، بدون أن أنظم هذه المادة وأرتبها، ولا زلت محتفظاً بهذه المادة بدون أن أجعل منها كتاباً منظماً مرتباً.

ثم يسر الله تعالى لنا وأكرمنا بإصدار كتاب بعنوان «إصلاح المدارس» في سنة ٢٠١٢، وكان تحضيره إجابة لدعوة من إدارة جامعة بينگول في تركيا فقد كانت نظمت مؤتمراً عن المدارس الأهلية الشرعية القائمة في تركيا، وعن شتى نواحيها.

وبعدما وصلت إلينا الدعوة الكريمة من الاتحاد العالمي، ووافقت على الطلب

حاولت أن أكتب البحث المطلوب بدون مراجعة المادة التي أحتفظ بها منذ نحو عشرين سنة.

والكتبُ التي كُتِبت عن الموضوع قديماً وحديثاً كثيرة متوفرة بفضل الله تعالى وكرمه، كَتبَ معظمَها أئمةٌ أعلام، وأنفس ما كتب قديماً وأهمها كتاب «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البر، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي، وما جمعه الإمام النووي في مقدمة «المجموع»، وكتاب «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» للإمام ابن جماعة، وأنفس ما كتب عنه حديثاً كتاب «معالم إرشادية لصناعة طالب العلم» لصديقنا العلامة المحدث الشيخ **محمد عوامة** نزيل المدينة المنورة، بارك الله تعالى عليه، وأجزل مثوبته. وكان قد تكرم بإهداء نسخة من الكتاب لهذا الفقير في آخر زيارة له في مكتبه بالمدينة المنورة في شهر رمضان من سنة **١٤٣٥** للهجرة النبوية، فحاولت الاختصار منه، والإتيان على جل مقاصده، ثم أضفت إلى ذلك ضعفَه تقريباً من مقدمة «المجموع» للإمام النووي، و«تذكرة السامع والمتكلم» للإمام ابن جماعة، ومِن غيرهما، ومما منّ الله تعالى به علينا، فجاء البحث بفضل الله تعالى وكرمه مع صغر حجمه من أجمع ما كتب عن الموضوع.

ثم إنه مما ينبغي أنْ يُعلم أنّ تعلّم العلوم وتعليمَها على وجه صحيح، وعلى مستوى عال يتربى عليه علماء كبار ربانيون، ورثة للأنبياء، يقودون الأمة إلى الخير والرشاد، ويعودون بها إلى ريادة العالم والسداد، يرتكز على ثلاثة أعمدة:

الأول: منهاج صحيح، قوي، جامع، متكامل.

الثاني: أستاذ قوي في فنّه الذي يدرسه، ذو باع طويل فيه، يجيد طريق إلقاء الدرس، يلقي إلى الطالب مجملات العلوم وكلياتها، ويحسن تدريب الطالب وتمرينه

على ما يلقيه إليه من المسائل والعلوم، ويكشف له غوامض العلوم ودقائقها. ويكون أسوة حسنة للطالب، صحيح العقيدة، مستقيم السيرة، يلقي إلى الطالب النصائحَ الدينية، ويدربه على الخلق الإسلامي الرفيع، والآداب الإيمانية العالية، ويثقِّفُه الثقافة الإسلامية، ويثير فيه النخوة الإسلامية والحماسة الإيمانية.

الثالث: ذكاء الطالب، وشوقه، وهمته العالية، واجتهاده المتواصل، ونشاطه المتتابع.

فمن أجل ذلك رتبنا بحثنا هذا على مقاصد ثلاثة:

المقصد الأول: ما يتعلق بالمتعلم في نفسه ونحو أستاذه ودراسته.

المقصد الثاني: ما يتعلق بالمعلّم في نفسه، ونحو طلابه.

المقصد الثالث: ما يتعلق بالمنهج.

ثم إن هذه المقاصد الثلاثة متداخلة لا يمكن فصل بعضها عن بعض فصلاً كاملاً، فمن أجل ذلك تكررَتْ بعض المسائل فيها.

ومن أجل أن هذا البحث يجمع بين بيان آداب العالم والمتعلم، وبين منهج التعليم والتعلم جاء بحثاً تعليمياً تربوياً، والتعليم في الإسلام لا ينفصل عن التربية، من أجل ذلك قدمنا البحث بمقدمة تتعلق بـ:

- النية الصالحة في طلب العلم وتعليمه.
- وبفضل الاشتغال بالعلم وتعلمه وتعليمه والحث عليه.

وختمناه بخاتمة عن:

- شرائط العالم الرباني المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه.

• وآداب التذكير والوعظ.

• ووصايا مهمة لطالب الحق.

وأخذنا هذه الخاتمة من الإمام ولي الله الدهلوي من كتابه «القول الجميل».

مما يجدر أن ننبه عليه أن لفظ الأدب يكثر ترداده في هذا الكتاب وأمثاله، وليس المراد بالأدب مجرد المستحسنات من التصرفات والأخلاق المستجادة، بل المراد منه ما يعمها والواجبات والمسنونات والمستحبات.

قونيا / تركيا

٦ جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ — **محمد صالح بن أحمد الغرسي**

١٥ آذار / مارس ٢٠١٦ م

❊ ❊ ❊

المقدمة

وفيها مبحثان:

١. النية الصالحة في طلب العلم وتعليمه.

٢. فضل الاشتغال بالعلم وتعليمه والحث عليه.

(١)

النية الصالحة في طلب العلم وتعليمه

مما لا بد منه لكل مسلم ولا سيما العالم والمتعلم للعلوم الإسلامية الإخلاص والصدق وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية، ومن أهم هذه الأمور طلب العلم وتعليمه والإرشاد والتبليغ والدعوة إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

قال النووي حديث صحيح متفق على صحته، مجمع على عظم موقعه وجلالته، وهو إحدى قواعد الايمان وأول دعائمه وآكد أركانه.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: «يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه»، وقال أيضاً: «هو ثلث العلم»، وكذا قال غيره أيضاً، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقد اختلف في عدها، فقيل: ثلاثة، وقيل: أربعة، وقيل: اثنان، وقيل:

---

(١) رواه البخاري (١).

حديث، ونقل جماعة أن السلف كانوا يستحبون افتتاح الكتب بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية وإرادته وجه الله تعالى بجميع أعماله البارزة والخفية.

وقال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى: «كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث «الأعمال بالنيات» أمام كل شيء يُنشأ ويُبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها»[١].

وقد أخبر النبي ﷺ أن أول من يُقضى عليه يوم القيامة مجاهد شهيد، وعالم معلم، وغني متصدق، حيث قال: «إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله تعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: إن فلاناً قارئ، وقد قيل ذلك..... ثم يؤمر به فيسحب على وجهه ويلقى في النار»[٢].

فأول ما يجب على طالب العلم ومعلمه تحقيق الإخلاص لله تعالى في طلبه وتعليمه، والحذر من أن يتخذه وُصلة إلى شيء من الأغراض الدنيوية.

نقل ابن الصلاح في النوع الثامن والعشرين من مقدمته عن الإمام سفيان الثوري أنه قال: «ما أعلم عملاً هو أفضل من طلب الحديث لمن أراد اللهَ تعالى به».

ونقل عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى أنه قال: «من طلب الحديث لغير الله تعالى مُكِر به».

---

(١) المجموع (١/ ٣٦-٣٧).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٥١٣)، والترمذي (٢٣٨٢) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وذِكْرُ الثوري وحماد بن سلمة رحمهما الله تعالى للحديث مثال، ومرادهما ـ والله تعالى أعلم ـ مطلق العلوم الشرعية فمن طلب العلم الشرعي ـ أيَّ علم كان ـ لغير الله تعالى فإن الله تعالى يمكر به ولا يوفقه فيه، بل يخذله.

وهذا في حق من يمحض النية فيه لغير الله تعالى من الأغراض الدنيوية، وذلك لما رواه جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «لا تعَلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[١]، وليس في حق من طلب العلم بلا نية دينية ولا دنيوية، بل طلبه محبة في العلم، إذ الجهل تأباه النفوس والفطر الزكية، وهذا معنى قول من قال من السلف: «طلبنا العلم بلا نية ثم جاءت النية».

وأما من بدأ بطلب العلم ولم يستحضر فيه نية صالحة ولا نية فاسدة فيرجى له أن يقوده العلم إلى النية الطيبة.

قال ابن عبد البر: روي عن حبيب بن أبي ثابت أحد أجلاء التابعين رحمه الله تعالى أنه قال: «طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد».

ونقل عن الإمام معمر بن راشد البصري من عدة طرق أنه قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله»[٢].

قال الإمام بدر الدين بن جماعة:

«الثاني: من آداب المعلم مع المتعلم، أن لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته، فإن حسن النية مرجوة ببركة العلم، قال بعض السلف: طلبنا العلم

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤) وابن حبان (٢٨١٠) والحاكم (٨٦/ ٢٩٠) وصححه.
(٢) جامع بيان العلم (١٣٨٠).

لغير الله فأبى إلا أن يكون لله، قيل: معناه فكان عاقبته أن صار لله، ولأن إخلاص النية لو شرط في تعليم المبتدئين فيه مع عسره على كثير منهم لأدى ذلك إلى تفويت العلم كثيراً من الناس»[١].

وقال: «لكن الشيخ يحرّض المبتدئ على حسن النية بتدرج قولاً وفعلاً، ويعلمه بعد أنسه به: أنه ببركة حسن النية ينال الرتبة العلية من العلم والعمل، وفيض اللطائف وأنواع الحكم، وتنوير القلب، وانشراح الصدر، وتوفيق العزم، وإصابة الحق، وعلوّ الدرجات يوم القيامة»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) تذكرة السامع والمتكلم (٤٧).
(٢) المصدر السابق (٤٥).

(٢)

فضيلة الاشتغال بالعلم

وتعلمه وتعليمه والحث عليه

قد تكاثرت الآيات والأخبار والآثار وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت على فضيلة العلم والحث على تحصيله والاجتهاد في اقتباسه وتعليمه.

وأنا أذكر طرفاً من ذلك تنبيهاً على ما هنالك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والآيات كثيرة معلومة، ورُوِّينا عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1].

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفةً منها أخرى إنما هي

(١) مسند الإمام أحمد (٢٧٨٦).

قيعان لا تمسك الماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق،ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[٢]، والمراد بالحسد الغبطة وهو أن يتمنى مثله، ومعناه ينبغي ألا يغبط أحداً إلا في هاتين الوصلتين إلى رضاء الله تعالى.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[٣]،وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أوعلم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[٦].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم

---

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٦٠٩٣).
(٢) رواه الشيخان.
(٣) رواه البخاري (٣٠٤٦) و مسلم (٦٣٧٦).
(٤) رواه مسلم(٦٩٨٠).
(٥) رواه الترمذي (١٤٣٢) وأحمد (٨٩٦٦).
(٦) رواه الترمذي (٢٨٥٩)، وقال: حديث حسن غريب.

على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في حجرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير»[١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً وإنما وَرَّثُوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٢].

وفي الباب أحاديث كثيرة، وفيما أشرنا إليه كفاية.

قال الإمام النووي: «وأما الآثار عن السلف فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، لكن نذكر منها أحرفاً متبركين».

عن علي رضي الله عنه: «كفى بالعلم شرفا أن يَدَّعِيَه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمّاً أن يتبرأ منه من هو فيه».

وعن معاذ رضي الله عنه: «تعلموا العلم فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة».

وقال أبو مسلم الخولاني: «مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيروا».

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٠١)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه أبوداود (٣٦٤١) (٣٦٤١) و(٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣).

وقال الشافعي رحمه الله: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»، وقال: «ليس بعض الفرائض أفضل من طلب العلم»، وقال: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم»، وقال: «من لا يحب العلم فلا خير فيه، فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة»، وقال: «إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي»، وقال: «ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء»، وقال: «من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

وقال البخاري رحمه الله في أول كتاب الفرائض من صحيحه قال عقبة بن عامر رضي الله عنه: «تعلموا قبل الظانّين»، قال البخاري: «يعني الذي يتكلمون بالظن»، ومعناه تعلموا العلم من أهله المحقِّقين الورعين قبل ذهابهم ومجيء قوم يتكلمون في العلم بمثل نفوسهم وظنونهم التي ليس لها مستند شرعي[١].

❊ ❊ ❊

(١) المجموع (١/ ٤٠-٤٢) وهذا الفصل كله مأخوذ من المجموع.

المقصد الأول
في آداب المتعلم في نفسه ونحو أستاذه ودراسته

وفيه سبعة عشر مبحثاً:

١. علو الهمة في طلب العلم.

٢. الحرص على الوقت في تحصيل العلم.

٣. معرفة طالب العلم قدر العلم الذي يطلبه وشعوره بأنه مرشح لوراثة الأنبياء وإمامة الأمة وقيادتها.

٤. التفرغ للعلم وحذف العلائق والعوائق.

٥. الصبر على الطلب وعدم الفتور فيه.

٦. أن يتخير من الأقران الصالحين الذين يساعدونه في الطلب ويحذر من صحبة غيرهم.

٧. ضرورة تلقي العلم عن المشايخ المتقنين الصالحين.

٨. صفة العالم الذي يُتلقى عنه العلم واختيارُه.

٩. التدرج في التعليم والتعلم.

١٠. اعتناء الطالب بحفظ ما ينفعه في حاله ومستقبله.

١١. الاعتناء بمطالعة الدرس وتكراره.

١٢. مذاكرة العلم.

١٣. اللسان السؤول وحسن المسألة.

١٤. تعلم القدر اللازم من العلوم الرياضية والعقلية والاجتماعية.

١٥. الاعتناء بتعلم اللغات الأجنبية.

١٦. المقصود من تعلم العلم وثمرته العمل به والتأدب بالآداب الإسلامية.

١٧. مجمل ما يحتاج إليه طالب العلم من الخصال.

(١)

علو الهمة في طلب العلم

قد طلب الله تعالى من المسلمين أن تكون همتهم عالية فيما يسعون لأجله، وندبهم أن يكون ما يسعون إليه من معالي الأمور، وذلك في آيات كثيرة من كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه في مجموعة من الأحاديث الشريفة.

أما الآيات الكريمة فمنها قوله تعالى في صفة عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

حيث أرشدنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن ندعوه أن نكون للمتقين أئمة، وهذه منزلة لا منزلة فوقها بعد منزلة النبوة.

فمن صفة عباد الرحمن أن يكونوا طالبين لأعلى المنازل بعد منزلة النبوة باذلين جهدهم في الوصول إليها. هكذا فلتكن همة المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وأما الأحاديث الشريفة فمنها قول النبي ﷺ: «إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»[١].

ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أبوهريرة رضي الله تعالى عنه: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، لكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لوتفتح عمل الشيطان»[٢].

وتأمل قوله: «احرص على ما ينفعك»، وقوله: «واستعن بالله» أي في طلب ما ينفعك «ولا تعجز» في طلبه، ولا أنفع للمؤمن من العلم، وقد قالوا: «لا يستطاع العلم براحة الجسم»، وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

فكن رجلاً رِجْلُه في الثرى وهامَـةُ هِمَّتـه فـي الثريـا

ومن المنظوم في علوّ الهمة في طلب العلم قصيدة للزمخشري، مطلعها:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي مِن وصلِ غانيةٍ وطولِ عِنـاقِ

ثم يقول في آخرها:

يا مَـن يحاولُ بالأمانـي رُتْـبَتي كـم بين مُسـتَـفِلٍ وآخـرَ راقي

أأبيتُ سـهـرانَ الدُّجى وتبيتُـهُ نومـاً وتبغي بعـدَ ذاك لِحـاقي

ومن ذلك قول الإمام النحوي ابن هشام الأنصاري:

ومـن يصطـبرْ للعلم يظـفـرْ بنَيلِه ومن يخطبِ الحسناءَ يصبرْ على البَذلِ

ومن لم يُـذِلّ النفسَ في طلبِ العُلا يسـيرًا يعِشْ دهراً طويـلاً أخا ذُلِّ

(١) الطبراني (٧٦).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٢، ٤).

قال الإمام النووي: «ومن آدابه ـ أي طالب العلم ـ الحلم والأناة، وأن تكون همته عالية، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، وألَّا يسوِّف في اشتغاله، ولا يؤخِّر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكن منها، وإن أمن حصولها بعد ساعة، لأن للتأخير آفات، ولأنه في الزمن الثاني يُحصِّل غيرها.

وعن الربيع قال: لم أر الشافعي آكلاً بالنهار ولا نائماً بالليل لاهتمامه بالتصنيف.

ولا يحمّل نفسه ما لا يطيق مخافة الملل وهذا يختلف باختلاف الناس، وإذا جاء مجلس الشيخ فلم يجده انتظره ولا يفوت درسه إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه، فلا يشق عليه بطلب القراءة في غيره»[1].

❊ ❊ ❊

(١) المجموع (١/ ٦٩).

(٢)

الحرص على الوقت في تحصيل العلم

الحرص على الوقت في طلب العلم ثمرة علو الهمة في الطلب.

والحرص على الوقت مطلوب من المسلم عموماً، وليس طلبه خاصاً بحال تحصيل العلم، لكنه فيه أشد طلباً وآكد جلَباً.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣] ، جعل الله الإعراض عن اللغو ثانيَ أسباب الفلاح للمؤمن بعد الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو وعدم صرف الوقت فيه هو ثمرة الحرص على الوقت، والعناية التامة باستثماره في الخير.

وقال تعالى في صفة عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أشار الله تعالى بهذه الآية الكريمة إلى أن عدم الإعراض عن اللغو، وصرفَ الوقت فيه أمر لا يليق بكرامة المؤمن، بل هو مخل بها، وأنه ليس من شأن عباد الرحمن أن يُخِلُّوا بهذه الكرامة بصرف أوقاتهم في اللغو.

وهذا فيه من الزجر عن تضييع الوقت وصرفه فيما لا يعنيه ما فيه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح: ٧-٨].

عن أبي برزة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم

القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه فيما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[١]، ونصف هذه الأربعة الوقت.

عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك»[٢]، ومعظم هذه الخمس من الوقت.

وقال النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٣]، ومعنى هذا أن من حسن إسلام المرء حرصه على وقته وعدم صرفه فيما لا يعنيه.

قال ابن الجوزي مخاطباً ولده بعدما أورد قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]: «إن الملكين يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأنفاسُ الحي خطاه إلى أجله، فكلُّ نفس يخرج منك بمنزلة خطوة تخطوها إلى منتهى أجلك، وستصل إليه»[٤].

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وينبغي أن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً، حضراً وسفراً، ولا يُذهب من أوقاته شيئاً في غير العلم إلا بقدر الضرورات لأكل ونومٍ قدراً لا بد منه، ونحوهما كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات.

وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوتها.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه الحاكم وصححه (٧٨٤٦)، وابن أبي شيبة مرسلًا (٣٥٤٦٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٧)، و ابن ماجه (٣٩٧٦)، ومالك في الموطأ (١٦٧٢).

(٤) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد (٨).

وقد قال الشافعي رحمه الله تعالى في رسالته: حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه.

وفي «صحيح مسلم» عن يحيى بن أبي كثير قال: «لا يستطاع العلم براحة الجسم»، ذكره في أوائل مواقيت الصلاة».

وقال النووي أيضاً: «وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشواغل، قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، فقد رُوِّينا عن عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تَسُودوا»».

وقال الشافعي: «تفقه قبل أن تَرأَس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه»[1].

* * *

(١) المجموع (١/ ٦٩).

(٣)

معرفة طالب العلم قدر العلم الذي يطلبه وشعوره بأنه مرشح لوراثة الأنبياء وإمامة الأمة وقيادتها

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء وَرَثَةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً وإنما وَرَّثُوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير»(٢).

عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته»(٣).

ومن أهم القصائد في معرفة قدر العلم قولُ أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني:

---

(١) رواه أبوداود (٣٦٤١) و(٣٦٤١) و(٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٣)، وابن ماجه (٢٢٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٦) وقال حديث حسن.
(٣) رواه ابن ماجه (٨)، وأحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن حبان (٤٦١٠).

يَقُولونَ لِي فِيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّما ... رَأَوا رَجلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَما

أَرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كنت كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا

وما زِلتُ مُنحازًا بعرضيَ جانباً ... عن الذُّلّ أعتَدُّ الصيانةَ مَغنَما

إذا قِيلَ: هذا مَنْهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى ... وَلكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

أُنَزِّهها عن بعض ما لا يَشينها ... مَخافةَ أقوالِ العِدا فِيمَ أو لِمَا؟

فأُصبحُ عن عيْب اللئيم مُسَلَّما ... وقد رحتُ في نفسِ الكريم مُعظَّما

وإنِّي إذا ما فاتني الأمرُ لمْ أبِتْ ... أقلِّبُ كفِّي إثرَهُ مُتَنَدِّما

ولكنه إنْ جاء عفواً قبلته ... وإن مال لم أُتبِعه هلَّا وليتما

وأقبض خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أنلها وافرَ العِرض مُكْرَما

وأُكرِمُ نَفْسي أن أُضاحِكَ عابساً ... وأن أَتَلَقّى بالمديحِ مُذَمَّما

وكم طالبٍ رِقِّي بنُعْماهُ لم يَصِل ... إليهِ وإنْ كان الرَّئيسَ المُعَظِّما

وكم نعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنمٍ يَعتَدُّهُ الحرُّ مَغْرَما

ولم أبتذِلْ في خدمة العلم مُهْجَتي ... لأخدِم من لاقيت، لكن لأُخْدَما

أَأَشقَى به غَرْسًا وأَجْنيهِ ذِلَّةً ... إذًا فاتِّباعُ الجَهْلِ قد كان أحزَما

وإني لراضٍ عن فتىً متعففٍ ... يَروحُ ويَغْدو ليس يَملِكُ دِرْهما

يبيتُ يراعِي النجمَ من سوءِ حالِه ... ويصبحُ طَلْقا ضاحكاً متبسما

ولا يَسْألُ المُثْرينَ ما بِأكُفِّهِمْ ... ولو ماتَ جُوعاً عِفَّةً وتكرُّما

فإن قلت: «زَنـدُ العِـلمِ كابٍ» فإنما كبا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَمـا
ولو أنّ أهلَ العلـمِ صانوه صانهم ولوعظَّمـوهُ فـي النفـوسِ لعَظَّـما
ولكـنْ أهـانـوهُ فهـانـوا ودَنَّسُـوا مُحَيَّـــاهُ بالأطمـاعِ حتى تَجَهَّـما
ومـا كلُّ بَـرْقٍ لاحَ لـي يَسْـتَفِزُّني ولا كلُّ مَـن لاقَيتُ أرضـاه مُنعما
ولكن إذا ما اضطرني الضُّر لم أبت أقلِّـبُ فكـري مُنْجِـدًا ثـم مُتْهِما
إلـى أن أرى مـا لا أَغَـصُّ بذِكـره إذا قلتُ: قد أسْـدى إليَّ وأنعَما(١)

وهذه القصيدة مما يتعين على طالب العلم حفظها، والاعتناء بها، وإنشادها في المحافل، ولا سيما العلمية منها.

وكان الداعية الكبير الإمام حسن البنا رحمه الله ينشد لتعلية همة أصحابه، هذا البيت الذي هو آخر بيت من لامية العجم:

قَـدْ رَشَّـحُوكَ لِأمْـــرٍ لَو فَطِنتَ له فَارْبأْ بنَفَسِكَ أنْ تَـرْعَىٰ مَعَ الهَـمَلِ

❋ ❋ ❋

(١) كذا أورد هذه القصيدةَ بأبياتها الأربعة والعشرين الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه: «صفحات من صبر العلماء» ص ٣٥٢- ٣٥٤، وقد جمعها من مجموعة من المراجع، وقد أورد معظمَها الإمامُ تاج الدين السبكي في الطبقات الكبرى في ترجمة القاضي أبي الحسن الجرجاني، ثم قال: «لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه، وما أعلى على هام الجوزاء موضعه، وما أنفعه لو سمعه من سمعه، وهكذا فليكن ـ وإلا فلا ـ أدبُ كل فقيه، ولمثل هذا الناظم يحسُن النظم الذي لا نظير له ولا شبيه».

(٤)

التفرغ للعلم وحذف العلائق والعوائق

من أهم أسباب النجاح في طلب العلم التفرغ من العلائق والعوائق، فعلى طالب العلم أن يراقب ما يعترض أمامه، فكل ما يراه عائقاً دون المواظبة على الطلب وشاغلاً عنه اعتبره حائلاً دون نجاحه أوكمال نجاحه، وتجنبه.

أسند الخطيب البغدادي إلى الإمام أبي يوسف القاضي رحمهما الله تعالى أنه قال: «العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأنت إذا أعطيته كلك من إعطائه البعض على غرر»[١] أي على احتمال أن يعطيك بعضه وأن لا يعطيك.

وأعقبه الخطيب بقول أبي أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه: «لا ينال هذا العلم إلا من عَطَّلَ دُكَّانَهُ، وخَرَّبَ بستانه، وهَجَرَ إخوانه، ومات أقربُ أهله إليه فلم يشهد جنازته».

وروى الصَّيْمَري في «أخبار أبي حنيفة وأصحابه» بسنده أن رجلاً سأل أبا حنيفة: «بم يستعان على الفقه حتى يحفظ؟» قال: «بجمع الهم» ـ أي تصميم العزم وصدق التوجه ـ قال قلت: «وبم يستعان على جمع الهم؟» قال: «بحذف العلائق»، قال قلت: «وبم يستعان على حذف العلائق؟»، قال: «بأخذ الشيء عند الحاجة، ولا تزد»[٢].

وذكر الموفق المكي أن أبا حنيفة قال في وصيته لأبي يوسف: «ولا تُكثر معاشرة

---

(١) الجامع ١٥٧٠.
(٢) أخبار أبي حنيفة ٢٢.

الإخوان إلا بعد أن يعاشروك، وقابل معاشرتهم بذكر المسائل، حتى إن كان من أهله اشتغل بالعلم، ومن لم يكن من أهله يجتنبك، ولا يَجِدُ عليك، بل لا يحوم حولك»[١].

ونقل السبكي في طبقاته الوسطى عن الإمام سليم بن أيوب الرازي رحمه الله تعالى أن سليماً خرج من بلده يطلب العلم ببغداد، فيحكى عنه في حال طلبه للعلم أنه كانت ترد عليه الكتب من أهله، فلا يقرأ منها شيئاً ولا ينظر فيها، وجمعها عنده إلى أن فرغ من تحصيل ما أراد، ففتحها، فوجد في بعضها: ماتت أمك، وفي بعضها ما يناسب ذلك مما ضاق به صدره، فقال: «لوكنت قرأتها قطعتني عما كنت فيه من التحصيل»[٢].

قال الإمام النووي: «وينبغي أن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد في التحصيل، ويرضى باليسير من القوت، ويصبر على ضيق العيش».

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح.

وقال الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لآداب الراوي والسامع»: يستحب للطالب أن يكون عزباً ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم.

وعن إبراهيم بن أدهم: «من تعود أفخاذ النساء لم يفلح»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) مناقب أبي حنيفة ٣٧٣.

(٢) وهو في التعليق على الطبقات الكبرى ٤/ ٣٨١.

(٣) المجموع (١/ ٦٥).

(٥)

الصبر على الطلب وعدم الفتور فيه

الصبر على الطلب وعدم الفتور فيه من آثار علو همة الطالب في الطلب، ومما يتفرع على معرفته قدر ما يطلبه، وعلى شعوره بأن ما يطلبه هو ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنه أمر لا يتحقق تحصيل العلم إلا به، فإن مفتاح كل أمر نفيس جليل بذل المجهود، وما طلب أحد شيئاً بجد وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كله نال بعضه.

ومن أجل أن نَيل المناصب العلية والمراتب الجليلة موقوف على الصبر على معاناة أسبابها ووسائلها قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال النبي ﷺ: «وما أوتي أحد عطاء خيراً ولا أفضل من الصبر»[١].

وقد أشار الله تعالى إلى أن الصبر في طلب العلم أمر لا بد منه بحكايته للحوار الذي جرى بين سيدنا موسى وسيدنا الخضر في سورة الكهف حيث ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۞ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠].

وفي هذه الآيات وفي مجموع القصة من الدلالة على أن الصبر في طلب العلم أمر لا بد منه ما فيها، منها ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ

(١) رواه مسلم (١٠٥٣)، والبخاري (١٤٦٩)، والترمذي (٢٠٢٤).

حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠] أي دهراً طويلاً في بلوغه إن كان بعيداً، من عزم سيدنا موسى وتصميمه على الصبر في الطلب، وعلى تحمل مشاق السفر الطويل فيه.

ومنها ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ [الكهف: ٦٢] من الصبر في الطلب وعلى تحمل مشاق السفر فيه.

ومنها ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ من لزوم الصبر على ذل التبعية للمعلم وإن كان الطالب أعلم من معلمه في معظم المسائل العلمية كما هو الحال في سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما الصلاة والسلام.

ومن لزوم التسليم للمعلم وترك المنازعة والاعتراض عليه والصبر على ذلك كما هو مدلول التبعية.

ومن لزوم الصبر على ذل الاستئذان في قبول هذه التبعية من المعلم.

ومن لزوم الصبر على مثل هذا التواضع العظيم في طلب العلم وتحصيله.

ومن الإشارة إلى أن العلم لا يتيسر حصوله إلا بمثل هذا الصبر وهذا التواضع والتسليم للمعلم.

كما أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ﴾ إشارة إلى لزوم صبر الطالب على إقراره على نفسه بالجهل ولمعلمه ـ وإن كان هو أعلم منه في معظم المجالات العلمية ـ بالعلم.

وفي قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ﴾ وإتيان مِن التبعيضية فيه إشارة إلى لزوم الصبر على ذل التبعية للمعلم وعلى المشقة في سبيل التعلم مهما كان الذي يتعلمه ليس بكثير،

لأن العلم مهما كان قليلاً في نفسه فهو عظيم القدر وشريف المحل، كما قال الشاعر:

قليـل منـك يكفينـي ولكن قليلـك لا يقـال لـه قليـل

وإذا كان سائل المال يتحمل ذل السؤال لقليل المال من الغَنِيّ، فكيف لا يتحمل الجاهل ذُلّ سؤال العلم ومشقة تعلمه، وكيف لا يصبر عليه، وهو تراث الأنبياء والمرسلين.

ثم إن في قوله تعالى: ﴿رُشْدًا﴾ إشارة إلى أن طلب العلم أمر جدير بأن يتحمل فيه هذه المذلات وهذه المشاق ويصبر عليها، وذلك لما يترتب على تعلم العلم من الرشد والهداية، والتخلص من الضلال والغواية، والهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ثم إن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ إشارةً قريبةً من التصريح إلى أن طالب العلم لا بد له من أن يصبر على شيخه وعلى تبعيته وعلى خدمته وعلى التسليم له فيما لا يظهر وجه الصواب فيه من أقواله وأحواله وأطواره، وأن لا ينازعه في ذلك ولا يعترض عليه.

لكن قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إشارة إلى أن عدم الصبر على ما لم يظهر وجه الصواب فيه من أقوال المعلم وأحواله قد يعذر فيه صاحبه، وهذا من خبرة سيدنا الخضر بطبيعة الإنسان من عدم صبره على ما لم يعلم وجه الصواب فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] ومن خبرته بطرق التربية حيث مهد لسيدنا موسى عليه والصلاة والسلام العذر لما كان يَتوقع وقوعَه منه من المنازعة والاعتراض لما لم يظهر له وجه الصواب فيه من أفعال سيدنا الخضر وأقواله.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ إخبار من سيدنا

موسى عليه الصلاة والسلام لسيدنا الخضر بعزمه على الصبر على تبعية معلمه، وعلى ما يصدر منه من التصرفات، وإن لم يظهر له وجه الصواب فيها.

وعبر بقوله: ﴿صَابِرًا﴾ بصيغه اسم الفاعل ليفيد عزمه على الاستمرار في الصبر في هذا الأمر، لكنه قيد هذا الاستمرار بالمشيئة لما يعلمه من الطبيعة الإنسانية من عدم صبرها على بعض الأمور، ولاتهام نفسه بذلك حتى لا يكون مخلفاً في وعده إن صدر منه مثل هذا الأمر.

وأما قوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ فوعد من سيدنا موسى لمعلمه بعدم عصيانه أمراً من أوامره، وبصبره على ذلك، وهذا مما ينبغي أن يراعيه الطالب مع معلمه، فلا يعصي له أمراً، ويصبر على امتثال أوامره ونواهيه.

وأما قوله: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ أي أذكره لك بعلته، فهوإشارة إلى أن من أدب طالب العلم أن يصبر على ما لم يظهر وجه الصواب فيه من تصرفات معلمه، ولا ينازعه، ولا يناقشه فيه، بل ولا يسأله عن وجهه، ويصبر حتى يبين المعلم وجه هذه التصرفات.

ومن المعلوم أن هذا الأدب إنما يراعى بعد التأكد من أن المعلم من أهل العلم الدقيق، ومن أهل الورع والتقوى، واعتقاد أنه لا يقدم على مثل هذه التصرفات إلا وله فيها وجه صحيح، وتأويل حسن كما هو الحال في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما الصلاة والسلام.

ثم إن هذه القصة قد احتوت بطريق العبارة والإشارة على مجمل آداب المعلم والمتعلم ولتفصيل ذلك محل آخر.

❊ ❊ ❊

(٦)

أن يتخير من الأقران الصالحين الذين يساعدونه في الطلب ويحذر من صحبة غيرهم

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] أمرنا الله تعالى بأن نكون مع الصادقين، وأشار بإعقابه بأمرنا بتقوى الله تعالى إلى أن الكينونة مع الصادقين من أهم أسباب الحصول على التقوى، ومن أقوى وسائله.

وقال النبي ﷺ فيما رواه أبوهريرة رضي الله تعالى عنه: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

وقال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك ـ يعطيك ـ وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»(٢).

وقال الإمام ابن عطاء الله الإسكندري: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله».

---

(١) رواه أبوداود (٤٨٠٠)، والترمذي (٢٣٧٨) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (٢٠٢٦٤) (١٣٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال الإمام بدر الدين ابن جماعة في كتابه النفيس: «تذكرة السامع والمتكلم»: «العاشرة ـ يعني من مهمات طالب العلم ـ: أن يترك العِشرة، فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم ولا سيما لغير الجنس، وخصوصاً لمن كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع سراقة.......فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً ديناً تقياً ورعاً ذكياً، كثير الخير قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إن نسي ذَكَّرَهُ وإن ذَكَر أَعَانَهُ، وإن احتاج وَاسَاهُ، وإن ضَجرَ صَبَّـرَهُ»[1].

* * *

(١) تذكرة السامع والمتكلم ٨٣.

(٧)

ضرورة تلقي العلم
عن المشايخ المتقنين الصالحين

إن أخذ العلم عن الشيوخ مفتاح العلم الصحيح، وعنوان فلاح طالب العلم وظفره، ولا وثوق بعلم من لم يتلق العلم عن العلماء المتقنين.

وقد صار من المقرر عند أهل العلم أن العالم الموثوق بعلمه هو الذي يكون له نسب صحيح في تلقيه للعلم وأخذه، كما أنه من المقرر عندهم أن شيوخ طالب العلم هم آباؤه وأجداده، وعمود نسبه العلمي،وأن من لم يكن له شيوخ تَلَقَّى عنهم العلم، ثم ادعى العلم وتكلم فيه فهو دَعِيٌّ فيه مجهول النسب أومفقوده.

قال الإمام النووي في ترجمة مسلم بن خالد الزنجي: «ومسلم رضي الله عنه أحد أجدادنا في سلسلة الفقه المتصلة بنا إلى رسول الله ﷺ»[١].

وقال عن الإمام أبي العباس ابن سريج: «وهو أحد أجدادنا في سلسلة الفقه»[٢].

ولم يكن أهل العلم يلتفتون إلى من لم يكن معروفاً بتلقي العلم عن المشايخ، ولا يقيمون له وزناً ولا اعتباراً، ولا يرون فيه أهلاً لأن يتحدثوا إليه في المسائل العلمية.

ففي «الإلماع» للقاضي عياض بسنده إلى صالح ابن الإمام أحمد قال سمعت أبي يقول: «ما الناس إلا من يقول: حدثنا وأخبرنا، وسائر الناس لا خير فيهم».

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات / المقدمة (٢/ ٩٣).
(٢) المجموع (١/ ٢١٤).

ولقد التفت المعتصم إلى أبي فقال له: كلم ابن أبي دُؤَاد، فأعرض عنه أبي بوجهه وقال: «كيف أكلم من لم أره على باب عالم قط؟!»[١].

وأسند الخطيب أنه قيل لأبي حنيفة: «في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال: لهم رأس؟ قالوا: لا، قال: لا يفقه هؤلاء أبداً»[٢].

وفي إسعاف المبطّأ للإمام السيوطي: «قال إسحاق بن محمد الغروي سئل مالك: أيؤخذ العلم عمن ليس له طلب ولا مجالسة؟ فقال: لا، فقيل: أيؤخذ عمن هو صحيح ثقة غير أنه لا يحفظ ولا يفهم؟ قال: لا يُكتب العلم إلا ممن يحفظ، ويكون قد طلب وجالس الناس، وعرف وعمل، ويكون معه ورع»[٣].

وقال الإمام الشاطبي: «المقدمة الثانية عشرة: من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به: أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام.

وقد اختلفوا هل يمكن حصول العلم دون معلم أو لا؟ فالإمكان مُسلَّم، ولكن الواقع في مجاري العادات أن لا بد من المعلم، وهومتفق عليه في الجملة، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل؛ واتفاق الناس على ذلك في الوقوع وجريان العادة به كاف في أنه لا بد منه.

وقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل الى الكتب، وصارت مفاتيحه بأيدي الرجال، وهذا كلام يقضي بأنه لا بد في تحصيله من الرجال.

وأصل هذا في الصحيح: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من قلوب

(١) الإلماع (٢٨).
(٢) أدب الفقيه والمتفقه (٧٩٠).
(٣) إسعاف المبطَّأ (١٨٠).

الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء»[١]. فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتيحه بلا شك»[٢]. انتهى.

وقد كان العلماء فيما مضى إذا التقوا بمدعي العلم كانوا أول ما يسألونه: مَن شَيْخُكَ؟ يتعلمون هل له شيخ أم لا، ويتعرفون على مستواه في العلم بمعرفة شيخه.

وقال الإمام الشاطبي: «ولا يؤخذ العلم إلا ممن تحقق به، وهذا واضح في نفسه، وهومتفق عليه بين العقلاء، إذ إن شروطهم في العالم ـ بأي علم اتفق ـ أن يكون:

١ـ عارفاً بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم.

٢ـ قادراً على التعبير عن مقصوده فيه.

٣ـ عارفاً بما يلزم عنه.

٤ـ قائماً على دفع الشبه الواردة فيه.

فإذا نظرنا إلى ما اشترطوه وعرضنا أئمة السلف في العلوم الشرعية وجدناهم قد اتصفوا بها على الكمال.

غير أنه لا يشترط السلامة من الخطأ البتة، ولا يقدح ـ الخطأ ـ في كونه عالماً، ولا يضر في كونه إماماً مقتدىً به، فإن قصر عن استيفاء الشروط نقص عن رتبة الكمال بمقدار ذلك النقصان، فلا يستحق الرتبة الكمالية ما لم يكمُل ما نقص»[٣].

وقال الإمام النووي: «قالوا: ولا يأخذ ـ طالب العلم ـ العلم إلا ممن كملت

---

(١) البخاري (١٠٠٠)، ومسلم (٢٠٥٨٤).

(٢) الموافقات (١/ ٩١).

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٢-٩٩).

أهليته وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته وسيادته، فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف: «هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»، ولا يكفي في أهلية التعلم أن يكون كثير العلم، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية، فإنها مرتبطة، ويكون له دربة ودين وخلق جميل، وذهن صحيح واطلاع تام، وقالوا: لا تأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق، فمن لم يأخذه إلا من الكتب يقع في التصحيف، ويكثر منه الغلط والتحريف.

وينبغي أن يَنظُـرَ معلمَه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته، ورجحانه على أكثر طبقته، فهوأقرب إلى الانتفاع به، ورسوخ ما سمع منه في ذهنه»[1].

❊ ❊ ❊

(١) المجموع (١/ ٦٦).

(٨)

صفة العالم الذي يُتلقى عنه العلم واختيارُه

من الدعائم التي يقوم عليها تحصيل العلم، وحصوله لطالب العلم الشيخ ومستواه العلمي وورعه وتقواه وجودة إلقائه للدرس، من أجل ذلك عد العلماء من أهم ما ينبغي أن يعتني به طالب العلم أن يختار له شيخًا متقناً للعلوم، يكون أسوة حسنة في مجتمعه، وقدوة صالحة لتلاميذه.

روى مسلم في مقدمة صحيحه عن التابعي الجليل محمد بن سيرين أنه قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم»، وروي مرفوعاً وموقوفاً ولا يصح.

وأسند الخطيب البغدادي إلى إبراهيم النخعي أنه قال: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صَلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه»[1].

وقال الإمام ابن جماعة: «ينبغي للطالب أن يقدم النظر، ويستخير الله تعالى فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليماً، وأجود تفهيماً.

ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أودين أوعدم خلق جميل.

وإذا سبرت أحوال السلف والخلف لم تجد النفع يحصل غالباً، والفلاح

(١) الجامع (١٣٦) والكفاية (١٥٧).

يدرك طالباً إلا إذا كان للشيخ من التقوى نصيب وافر، وعلى شفقته ونصحه للطالب دليل ظاهر»[١].

وليجتهد الطالب على أن يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية تمام الاطلاع، وله مع من يثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع، لا ممن أخذ من بطون الأوراق، ولم يُعرف بصحبة المشايخ الحذاق.

قال الإمام الشاطبي: «وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات...وهي ثلاث:

أحدها: العمل بما علم حتى يكون قوله مطابقاً لفعله، فإن كان مخالفاً له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في علم.

والثانية: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان السلف الصالح.

وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك.

وقلما وجد فرقة زائغة ولا أحد مخالف للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف.

وبهذا وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ، ولا تأدب بآدابهم.

وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم.

والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بآدابه كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن، وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه، أعني بشدة الاتصاف به، وإلا فالجميع ممن يهتدى به في الدين كذلك كانوا، ولكن مالكاً اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى.

---

(١) التذكرة (٨٥).

فلما تُرك هذه الوصف رَفعت البدع رؤوسَهَا، لأن ترك الاقتداء دليل على أمر حدث عند التارك أصله اتباع الهوى»[١].

وقال الإمام الذهبي بعد أن ذكر الناجحين في طلب العلم: «وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يَدُرْ في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله تعالى، لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنة يخزنها وينظر فيها يوماً ما، فيصحف ما يورده ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) الموافقات (١/ ٩٣-٩٩)، (١/ ٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥٢-١٥٣).

(٩)

التدرج في التعليم والتعلم

والتدرج مما ينبغي رعايته في تعلم العلم الواحد، وفي تعلم مجموعة من العلوم.

أما العلم الواحد فمن أهم ما ينبغي رعايته في التعليم والتعلم منهج التدرج في تعلمه، فإن تعلم العلوم إنما يكون معتداً به ونافعاً إذا كان على وجه الأصالة والتحقيق، وهذا لا يتحقق إلا بالإحاطة بمجملات العلوم ورؤوس مسائلها أولاً، وبمهمات مسائلها وتفاريعها ثانياً، وبالاستقصاء لمسائلها وقواعدها وبمعرفة دقائقها ثالثاً، وهذا ما يعبر عنه بالتدرج.

وقد اتفق العلماء والمربون على أنه لا بد في تلقي العلوم بوجه صحيح وأصيل من رعاية هذا التدرج، وقد فصله بعض العلماء كالإمام الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في مقدمته بأخذ العلم على ثلاث مراحل، وسماها الغزالي بمرحلة الاقتصار، والاقتصاد، والاستقصاء، وفصل سجاقلي زاده المرعشي هذه المراحل، فقال: «الاقتصار في كل فن ما تضمنته المتون المختصرة، والاقتصاد ما تضمنه المتون المتوسطة، وما زاد على ذلك استقصاء، ولا تحد تلك المراتب إلا بالتقريب».

ثم قال: «ولي إجمال في تحديد هذه المراتب، وهو أن إحاطة أشهر مسائل الفن اقتصار، والزيادة عليها بإحاطة مشهوراتها أيضاً اقتصاد، والزيادة عليها بإحاطة نوادرها أيضاً استقصاء»[١].

---

(١) ترتيب العلوم (٢١٦).

قال الماوردي: «اعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء من غير أُس لا يُبنَى، والثمر من غير غرس لا يُجنَى»[1].

وقد أجاد ابن خلدون في تصوير هذه المراحل الثلاث، وبيان أنها ضرورية من أجل الأخذ بنواحي العلوم، فقال تحت عنوان: «وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادتها»:

«اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته.

ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلا وضحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته.

هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يُخْلَقُ له ويَتَيَسَّرُ عليه.

وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم

---

(١) أدب الدنيا والدين (٨٤).

وإفاداته، ويُحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رَعْي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفن، وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن.

وإذا ألقيت عليه الغايات في البداءات، وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي، وبعيد عن الاستعداد له، كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله، وتمادى في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم.

وكذلك ينبغي لك ألا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس، وتقطيع ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها.

وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة، مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً، وأقرب صنعاً، لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه. والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم، أن لا يُخلط على المتعلم علمان معاً، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معاً، ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة.

وإذا تفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب»[١].

وقد قالوا: الرباني هوالذي يربي بصغار العلم قبل كبارها.

قال في تعليم المتعلم: «كان المشايخ يختارون للمبتدئ صغار المبسوطة لأنه أقرب إلى الفهم والضبط، وأبعد من الملال، وأكثر وقوعاً بين الناس».

وهذا هوالتدرج في تلقي آحاد العلوم.

ولا بد أيضاً من التدرج في تلقي جملة العلوم، وذلك بتقديم تعلم الأهم منها والأسهل، قال الإمام النووي: «وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصراً، ويبدأ بالأهم، ومن أهمها الفقه والنحو، ثم الحديث والأصول ـ أي أصول الدين وأصول الفقه ـ ثم الباقي على ما تيسر، ثم يشتغل باستشراح محفوظاته...وإذا بحث المختصرات انتقل إلى بحث أكبر منها مع المطالعة المتقنة والعناية الدائمة المحكمة، وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب وحل المشكلات مما يراه في المطالعة أويسمعه من الشيخ»[٢].

وقال ابن الجوزي: «لا بد للطالب من معرفة ما يقيم به لسانه من النحو ومعرفة طرف مستعمل من اللغة، والفقهُ أصل العلوم»[٣].

وقال: «من كان ذا همة ونصَح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم، وجعل جل شغله الفقه، فهو أعظم العلوم وأهمها»[٤].

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٥٣١- ٥٣٣).

(٢) المجموع ـ المقدمة (١/ ٧٠).

(٣) لفتة الكبد (١٠).

(٤) صيد الخاطر (٣٦٦).

ثم إن ما قدمناه من منهج التدرج في تلقي العلم الواحد، وفي تلقي جملة من العلوم، هوأساس التمكن في العلوم، وحصول الملكة العلمية فيها، واستيعابها والبصارة فيها، فإذا يسر الله تعالى هذا التدرج والاجتهاد في مواده لطالب العلم، فهو الموفق المحظوظ المتمكن الذي سيشار إليه بالأصابع، وإذا حرمهما فهوعلى شفا جرف هار.

❊ ❊ ❊

(١٠)

اعتناء الطالب بحفظ ما ينفعه في حاله ومستقبله

من أهم المهمات لطالب العلم اعتناؤه بحفظ ما ينفعه في مستقبله من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والمتون العلمية، يحفظ من كل علم متناً معتمداً، وذلك حتى تتمكن عنده ملكة الاستحضار لآيات الكتاب والأحاديث النبوية والاستشهاد بها في المناسبات، وحتى تتمكن عنده الملكة في مختلف الفنون ويكون مستحضراً لمسائلها وقواعدها عند الحاجة.

وقد أسند الخطيب إلى الإمام عبد الرزاق الصنعاني والأصمعي أنهما قالا: «كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعده علماً»[١]، وقد ورد في وصية ابن الجوزي لولده: «عليك بالحفظ فإنه رأس المال والتصرف ربح»[٢].

وقال الإمام النووي: «وأول ما يبتدئ به الطالب حفظ القرآن العزيز.....، وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصراً، ويبدأ بالأهم، ومن أهمها الفقه والنحو، ثم الحديث والأصول، ثم الباقي على ما تيسر»[٣].

قال الإمام ابن جماعة في بيان ما ينبغي لطالب العلم أن يسير عليه: «أن يبتدئ

---

(١) الجامع (١٨١٨ -١٨١٩).

(٢) لفتة الكبد (٢٠).

(٣) المجموع ـ المقدمة (١/ ٣٨).

أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً..... ثم يحفظ من كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه والأصولَين ـ أصول الدين وأصول الفقه ـ والنحو والتصريف..... ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ»[1].

وليحذر من الاعتماد في ذلك على الكتب أبداً، بل يعتمد في كل فن من الشيوخ من هو أحسن تعليماً له، وأكثر تحقيقاً فيه، وذلك بعد مراعاة الدين والصلاح، ويعطي الكتاب الذي يقرأه أو الفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه.

هكذا كانت سنة العلماء السابقين من السلف والخلف، كانت سنتهم الاعتماد في تحصيل العلوم على الحفظ، يحفظون العلوم، ويحفظون الكتب، ويحفظون المتون، فأتقنوا العلوم، ونبغوا فيها، وتبوؤا منصب الإمامة فيها هادين مهديين، وللحفظ في هذا أكبر دور.

واستمر طلاب العلم على هذا إلى أن ظهرت حديثاً مؤسسات التعليم الرسمية المسماة بالجامعات والكليات، فوسوست الشياطين إلى القائمين عليها أن الحفظ ضار بالعلم حسب النظريات التعليمية الجديدة، فضاع الحفظ، ورق العلم، وضحل، وافتقد أهلها الأصالة العلمية إلا من رحمه الله.

ولم يحصُل المتخرجون من الكليات إلا على معلومات مشتتة أحق بأن تسمى بالثقافة منها بالعلم، اللهم إلا أن يكون الواحد منهم قد درس قبل الدراسة الجامعية أومعها دراسة مؤصلة على المشايخ.

قال الإمام النووي: «قال الخطيب البغدادي: أجود أوقات الحفظ الأسحار، ثم نصف النهار، ثم الغداة، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع.

---

(١) التذكرة (١١٢).

قال الخطيب: وأجود أماكن الحفظ الغرف، وكل موضع بعد عن الملهيات، وقال: وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة، والأنهار وقوارع الطرق، لأنها تمنع غالباً خلوة القلب»[١].

ومما يجدر التنبيه عليه أن أوائل السلف كان اعتمادهم في تلقي العلوم الأخذ من الأفواه والحفظ في القلوب. قال ابن الأكفاني: «ولم تزل سنة العلماء القدماء جارية على تعليم العلوم مشافهة دون كتاب، فلا يصل العلم غير مستحقه، ولكثرة المشتغلين بالعلم حينئذ وحرصهم على تحصيلها وحفظها استمرت فيهم، فلما ضعفت الهمم وقصرت انقرض بعض العلوم، فأخذ من مضى من العلماء في تدوين العلوم في الكتب، لتبقى العلوم ولا تبيد»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) المجموع (١/ ٦٨).
(٢) إرشاد القاصد (٩٧).

(١١)

الاعتناء بمطالعة الدرس وتكراره

نقصد بالمطالعة مطالعة المقدار الذي سيدرسه الطالب على أستاذه في يومه أو في غده قبل حضوره على الأستاذ، فإن الطالب بمطالعته هذه يصير متهيئاً لما سيشرحه الشيخ ولما يلقيه من المسائل، ويكون مستعداً لفهم ذلك.

ونقصد بالتكرار تكرار هذه المطالعة حتى يكون أقوى فهماً لما كرره، وأكثر استعداداً لفهم ما يلقيه الشيخ عليه وقت الدرس، ومراجعة الدرس الذي درسه على الشيخ، وتكرار هذه المراجعة حتى يستذكر ما ألقاه الشيخ عليه، ويرسخ ذلك في ذهنه.

وهذان الأمران من الأمور المؤكد على طالب العلم رعايتهما، وبرعايتهما يرسخ العلم عند الطالب وتحصل عنده الملكة العلمية.

وهذا ما كان عليه أهل العنايات من طلاب العلم في القديم والحديث.

وقد كان من الكلمات المتداولة على الألسنة في مدارسنا، الجارية مجرى الأمثال: «الدرس حرف والتكرار ألف».

وقد نقل عن كثير من السلف من ذلك التكرار ما لا يصدقه طالب العلم اليوم.

فقد نقلوا عن الإمام أبي إسحاق الشيرازي أنه كان يكرر الدرس ألف مرة، وعن الإمام كيا الهراسي زميل الإمام الغزالي في الطلب على إمام الحرمين نحو النصف من ذلك.

قال البرهان الزرنوجي: «ينبغي أن يكرر سَبْق ـ درس ـ الأمس خمس مرات،

وسبق اليوم قبل الأمس أربع مرات والسبق الذي قبله ثلاثاً، والذي قبله اثنين والذي قبله واحداً»[١].

ثم نبه الزرنوجي إلى أمر مهم في التكرار وهوعدم المخافتة فقال: «وينبغي أن لا يعتاد المخافتة في التكرار، لأن الدرس والتكرار ينبغي أن يكون بقوة ونشاط، ولا يجهر جهراً يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوساطها». انتهى.

وذلك لأن الجهر وإسماع الأذن يكون سبباً في الرسوخ في القلب، والنشاط ودفع الكسل وذهاب النوم.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «ويعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه تصحيحاً متقناً على الشيخ، ثم يحفظه حفظاً متقناً، ثم بعد ذلك يكرره مرات ليرسخ رسوخاً متأكدا، ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً، ويبدأ درسه بالحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء للعلماء ومشايخه ووالديه وسائر المسلمين، ويبكر بدرسه لحديث «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[٢]، ويداوم على تكرار محفوظاته، ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالاً، بل يصحح على الشيخ كما ذكرنا، فالاستقلال بذلك من أضر المفاسد، وإلى هذا أشار الشافعي رحمه الله تعالى بقوله: من تفقه من الكتب ضيع الأحكام، وليذاكر بمحفوظاته، وليدم الفكر فيها، ويعتني بما يحصل فيها من الفوائد، وليوافق بعض حاضري حلقة الشيخ في المذاكرة.

قال الخطيب: وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل، وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء، فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح»[٣].

---

(١) تعليم المتعلم (٨٠).
(٢) رواه أبو داود (٢٦٠٦) والترمذي (١٢١٢).
(٣) المجموع (١/ ٦٩).

(١٢)

مذاكرة العلم

من مهمات طالب العلم المذاكرة، والمقصود بها المباحثة بالعلم والمساءلة والمناقشة والمناظرة مع أقرانه ومع شيوخه، ومع أي كان ممن هو أهل لها، فبالمذاكرة يتولد الفهم، وتتفتق القريحة عن وجوه وأجوبة واحتمالات للمسألة.

ومن فوائد المذاكرة: حفظ المسائل التي ذاكرتها وتثبيت حفظها، وأنك تضم إلى علمك علم الآخرين، وإلى فهمك فهمهم.

وقد نبه على أهمية المذاكرة بالعلم كبار الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا من كبار الأئمة والمربين.

وقد كان كثير منهم يرون السمر بها بالليل خيراً من قيام الليل بالصلاة والأذكار.

جاء في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى أن أبا زُرعة الرازي لما قدم بغداد ونزل ضيفاً على الإمام أحمد كان أحمد يقول: «ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي، وهو الذي كان يصلي في اليوم والليلة ثلاثمئة ركعة، وبعد المحنة ضعف بدنه، فاقتصر على مئة وخمسين ركعة». رواه أبونعيم في الحلية[1].

قال الزرنوجي: «لا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، وينبغي أن يكون بالإنصاف والتأني والتأمل، ويحترز عن الشغب والغضب، فإن

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٥٥).

المناظرة والمذاكرة مشاورة، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب وذلك إنما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف، فإن كانت نيته إلزام الخصم وقهره فلا يحل ذلك، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق.

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار، لأن فيه تكراراً وزيادة.

وقيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر.

وإياك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع، فإن الطبيعة سراقة متغيرة، والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثرة»[١].

قال الإمام النووي في أول شرحه على مقدمة صحيح مسلم ـ وهو يرسم طريق تحصيل علم الحديث ـ: «المراد من هذا العلم الاعتناء بتحقيقه، والبحث عن خفي معاني المتون والأسانيد...، ثم يديم مطالعة ما كتبه، ويذاكر بمحفوظاته من ذلك من يشتغل بهذا الفن، سواء كان مثله في المرتبة أوفوقه أوتحته، فإن بالمذاكرة يثبت المحفوظ، ويتحرر ويتأكد ويتقرر، ويزداد بحسب كثرة المذاكرة، ومذاكرة حاذق في الفن ساعة أنفع من المطالعة والحفظ ساعات بل أياماً»[٢].

وليكن في مذاكراته متحرياً الإنصاف قاصداً الاستفادة أو الإفادة، غير مترفع على صاحبه بقلبه ولا بكلامه ولا بغير ذلك من حاله، مخاطباً له بالعبارة الجميلة اللينة، فبهذا ينموعلمه وتزكو محفوظاته.

* * *

(١) تعليم المتعلم (٧٢).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٤٧-٤٨).

(١٣)

اللسان السؤول وحسن المسألة

من مهمات طالب العلم أن يتخذ السؤال عما لا يعلم وعما انغلق عليه من العلم شعاراً له ودثاراً، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقد اشتهر عن سيدنا البحر الحبر عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال لمن سأله: بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول.

وقد ورد أن «شفاء العِيِّ السؤال»[١]، وأن «العلم خزائن ومفاتيحها السؤال»[٢]، وقد قالوا: حسن المسألة نصف العلم.

ثم إن السؤال يكون إما عن أمر يجهله السائل، أوعن أمر لم يتضح له وجهه، أوعن عبارة أغلقت عليه فلم يفهمها.

وقد يكون السؤال عن شبهة عرضت للسائل يتعين عليه المبادرة إلى من يثق به من أهل العلم والاختصاص لحلها ودفعها.

قال الإمام النووي في بيان أدب المتعلم مع معلمه: «ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه، ولا يلح في السؤال إلحاحاً مضجراً، ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه، ويتلطف في سؤاله، ويحسن خطابه، ولا

---

(١) رواه مرفوعاً أبوداود (٣٣٧)، وابن ماجه (٥٧٢).

(٢) رواه أبونعيم في الحلية (٣/ ١٩٢) بسند ضعيف.

يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رق وجهه رق علمه، ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال.

وإذا قال الشيخ: أفهمت؟ فلا يقل: نعم، حتى يتضح له المقصود اتضاحاً جلياً، لئلا يكذب ويفوته الفهم، ولا يستحي من قوله: لم أفهم، لأن استثباته يحصل له مصالح عاجلة وآجلة، فمن العاجلة حفظ المسألة، وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه، ومنها اعتقاد الشيخ اعتناءه ورغبته، وكمال عقله وورعه، ومِلْكَهُ لنفسه، وعدم نفاقه، ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائماً، واعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية، وعن الخليل بن أحمد: منزلة الجهل بين الحياء والأنفة»[(١)].

❊ ❊ ❊

(١) المجموع (١/ ٦٨).

(١٤)

تعلم القدر اللازم من العلوم الرياضية والعقلية والاجتماعية

مما لا يخفى على الملمّ بالتاريخ الحديث أن العالَم منذ نحو مئتي سنة قد بدأ بالتغير، تغيرت الأوضاع فيه عما كانت عليه سابقاً، وتجددت فيه أمور لا عهد للسابقين بها، ودخل الناس عصر الحداثة والتقنية والتكنولوجيا، وكان هذا نتيجة لعلوم ومعارف تقدمت ذلك، ثم نتج عن هذا الأمر علوم ومعارف لم يكن للناس عهد بها، وتجددت معها ثقافات وفلسفات وطرق للحياة والمعيشة وأساليب للتعامل والمعاملات أثرت على الناس عامة، وعلى أصحاب العلوم المختلفة خاصة.

وهذا كما يتطلب من علماء المسلمين أن يكونوا عالمين بوجه دقيق وعميق بالعلوم الإسلامية حتى يزنوا هذه العلوم والفلسفات والثقافات والمعاملات وأساليب الحياة والتعامل بميزان الشرع فيقروا الصالح والنافع منها، ويسعوا في الحث على الأخذ به وعلى نشره، ويبينوا الضار والباطل والزائف منه، ويحذروا الناس من شره ووخامة عاقبة الانجرار وراءه، كذلك يتطلب منهم أن يكونوا ملمين بتلك العلوم والمعارف والثقافات والفلسفات، وعالمين بلغاتها، وخبيرين بما استجد من المعاملات وأساليب الحياة والتعامل، وذلك حتى يستطيعوا أن يقوموا بتقييم هذه الأمور تقييماً شرعياً وأن يحكموا عليها بأحكام شرعية دقيقة صحيحة، وحتى يتمكنوا من دفع الشبه والشكوك الناتجة عن هذه الفلسفات والثقافات، لاسيما أن

هذه الفلسفات والثقافات قد ظهرت على أيدي أعداء الإسلام الصليبيين الذين لا يألون جهداً في الكيد للإسلام والمسلمين، ولا يدخرون وسعاً في إثارة الشبه والشكوك والانتقادات على شعائر الإسلام ونصوصه وأصوله وفروعه.

ثم إن العلوم الرياضية والعقلية والاجتماعية قديمة كانت أو حديثة قد يتوقف على معرفتها أو الإلمام بها أو معرفة قسم منها معرفةُ بعض الأحكام الشرعية، والعمل بها وتطبيقها، كالحساب فإنه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها، وكالفلك فقد يتوقف عليه معرفة الأوقات ومعرفة اتجاه القبلة، وكالطب فقد يتوقف الجزم ببعض الأحكام الشرعية على معرفة الطبيب الحاذق العادل، وعلى إخباره وقراره.

فمن المؤكد على العالم بالعلوم الإسلامية أن يكون له إلمام بهذه العلوم، وعناية بتعلم القدر اللازم منها.

ولم نقصد بهذا أن تكون مدارسنا الشرعية مدارس طب أوهندسة أو فلسفة أوكيمياء، وما أشبه ذلك، ولكن الذي نقصده أن هناك علوماً ومعارف لها صلة وثيقة بالإسلام وعلومه، تعين على فهمه، أوتبرهن على صحته، أويدفع بها الشبه الواردة عليه، فهذه العلوم والمعارف مما يجب على المسلمين وجوباً كفائياً أن يكون فيهم من يجيد معرفتها، ويتأكد على العالم بالعلوم الإسلامية أن يعرف القدر الضروري منها، الذي يتوقف على معرفته القيام بما يجب القيام به من بيان الأحكام الشرعية والعمل بها، أو يستشير أهل الخبرة والاختصاص في ما يعرض أمامه من المسائل المتعلقة بهذه العلوم.

❊ ❊ ❊

(١٥)

الاعتناء بتعلم اللغات الأجنبية

مما ينبغي لطلاب العلم العناية به، ولمعلمهم التركيزعليه وإدراجه ضمن المناهج التعليمية تعلم اللغات الأجنبية، ولا سيما الحية منها كالإنجليزية.

قال الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، وقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤].

فما دام أننا أمّة «اقرأ» فمن واجبنا قراءة ما عند الآخرين المكتوب بلغاتهم حتى نعرف ما عندهم وحتى نستطيع أن نقوّمه، فنقبل الصالح النافع منه ونحبذه، ونبين فساد الفاسد منه وضرر الضار منه ونحذر منه، وهذه هي صفة الهيمنة التي اختص الله بها هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وهذه هي خصيصة الهيمنة.

وما دمنا أمة «ادع» فمن واجبنا معرفة ما تيسر من لغاتهم وألسنتهم حتى يتيسر لنا دعوتهم إلى سبيل ربهم، وجدالهم، وبيان ما نزل لهم.

وقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود، قال: «أمرني رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، أن أتعلم كلمات من كتاب يهود»، قال: «إني والله ما آمن يهود على كتاب»، قال زيد: «فما مر بي نصف شهر

حتى تعلمته له»، قال: «فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم»[١].

وفي هذا دليل على أننا مأمورون بتعلم اللغات الأجنبية عند الحاجة إليها، ولا سيما إذا ما اقتضته حاجة الدعوة والتبليغ الذين هما الأصل في نشر الإسلام، ويتأكد هذا الأمر في هذا العصر الذي تقاربت فيه الأمم واختلطت الشعوب، وتدانت فيه اللغات وتشابكت الألسنة، وصارت فيه الدنيا كما يقولون ـ كقرية واحدة ـ.

وأما حديث «من تعلم لغة قوم أمن شرهم» أو «أمن مكرهم» فلم يثبته أهل الحديث، وقالوا: لا أصل له.

* * *

(١) رواه أحمد (٥/ ١٨٢)، والترمذي (٢٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤٥).

(١٦)

المقصود من تعلم العلم وثمرته العمل به والتأدب بالآداب الإسلامية

العلم النافع نور يقذفه الله في قلب صاحبه، يورث خشية لله تعالى راسخة فيه، ظاهراً أثرها على جوارحه، مسددة لسلوكه وتصرفاته، جاعلة منه أسوة حسنة في مجتمعه.

روى ابن أبي شيبة وغيره عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ كان يدعو إذا صلى الصبح حين يسلّم «اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً» وفي رواية «ورزقاً واسعاً»[١].

وقد جاء مرفوعاً: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»[٢].

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الأربع من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع»[٣].

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «العلم والحكمة نور يهدي الله به من يشاء وليس بكثرة المسائل»[٤].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٨٧٥).
(٢) رواه أحمد في مسند أبي هريرة (٨٩٠١).
(٣) رواه الترمذي (٣٥٩٩)، وابن ماجه (٢٥١).
(٤) المحدث الفاصل (٧٥٥)، وجامع بيان العلم وفضله (١٣٩٥-١٣٩٩).

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «ليس العلم عن كثرة الحديث إنما العلم خشية الله»[١].

وقال الذهبي: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكنه نور يقذفه الله تعالى في القلب، وشرطه الاتباع، والفرار من الهوى والابتداع»[٢].

وقال الخطيب البغدادي في مقدمة كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»: «والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدباً، وأشد الخلق تواضعاً، وأعظمهم نزاهة وتديناً، وأقلهم طيشاً وغضباً، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه، وطرائق المحدثين، ومآثر الماضين، فيأخذ بأجملها وأحسنها، ويصدف عن أرذلها وأدونها».

وقال الإمام ابن جماعة في مقدمة كتابه «تذكرة السامع والمتكلم»: «أما بعد، فإن أهم ما يبادر به اللبيب شرخ شبابه، ويدئب نفسه في تحصيله واكتسابه، حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسن على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة، وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة، أهل العلم الذين جلوا ـ أي علوا ـ به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء، لعلمهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف.

قال ابن سيرين: كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم.

وقال الحسن: إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين.

---

(١) المحدث الفاصل (١٤٠١، ١٤٠٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣١٣).

وقال سفيان بن عيينة: إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، وعليه تعرض الأشياء على خلُقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل.

وقال حبيب بن الشهيد لابنه: يا بنيّ اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم وخذ من أدبهم، فإن ذلك أحب إليّ من كثير من الحديث.

وقال بعضهم لابنه: يا بني لأن تتعلم باباً من الأدب أحب إلي من أن تتعلم سبعين باباً من أبواب العلم.

وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك: نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث.

وقيل للشافعي رضي الله عنه: كيف شهوتك إلى الأدب، فقال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً فتنعم به، قيل: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره». انتهى.

وخلاصة الأمر: أن العلم النافع هو الذي حملك على العمل به، وعلى المزيد من التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، وأنار قلبك وهذب نفسك، فصرت تقف عند كل أمر صغير أوكبير، تلاحظ حقوق الله تعالى فيه، وتراعي أوامره ونواهيه المتعلقة به كما كان يقف عنده النبي ﷺ وأتباعه الصالحون الصادقون. اللهم أكرمنا بذلك.

وقد عبر التابعي الكبير الإمام الشعبي عن مكانة الكلمة النافعة من العلم أصدق تعبير فقال: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيع»[(١)].

❊ ❊ ❊

(١) أسنده الخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» (٢٦).

(١٧)

مجمل ما يحتاج إليه طالب العلم من الخصال

يحتاج طالب العلم في تعلمه إلى مجموعة من الخصال الحميدة، ونسرد هنا مجموعة من أقوال كبار الأئمة في ذلك.

١ـ روى ابن أبي العوام عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: «علمنا هذا لا يصلح إلا بثلاث خصال: أن يكون الرجل مشتهياً له، ذكياً، مكتفياً»[١].

٢ـ وروى الخطيب عن الإمام الشافعي أنه قال: «يحتاج طالب العلم الى ثلاث خصال: أولها: طول العمر، والثانية: سعة اليد، والثالثة: الذكاء»[٢].

٣ـ وقال أبو هلال العسكري: قال بعض الأوائل: لا يتم العلم إلا بستة أشياء: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية من المال، وعمل كثير ـ أي اجتهاد ـ ومعلم حاذق، وشهوة ـ أي رغبة وشوق في طلب العلم[٣]ـ.

٤ـ وقال الماوردي رحمه الله تعالى: «الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب تسعة شروط: العقل، الفطنة، الذكاء، الشهوة إلى العلم، الاكتفاء بمال يغنيه عن الطلب، التفرغ من الأعمال، التفرغ من الهموم والمكدِّرات، طول العمر، أستاذ سَمِحٌ بعلمه»[٤].

---

(١) المناقب (٨٥٩).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٨٧).

(٣) الحث على طلب العلم (٤٧).

(٤) أدب الدنيا والدين (١١١). قال أبو هلال العسكري في «الفروق اللغوية» ص ٦٧: «الفرق بين =

٥ـ وقال الإمام ابن العربي المالكي: «اعلموا ـ نور الله بصائركم ـ أنّا قد أوضحنا أن السبيل الى معرفة العلوم هو التعلم، فإن التزمته بشروطه وتماديت عليه وصلت إليه، وشروطه ووظائفه تنيف على المئتين، لكن الأمهات التي ترجع إليها البنات سبعة شروط:

الشرط الأول: إخلاص النية، فهو أصل الأصول وشرط الشروط.

الشرط الثاني: التواضع للعلم، فحيث عَلِمَ العلمَ قصَدَه، وممن سمعه أخذه، فالحكمة ضالة المؤمن، ولا تَستصغِرْ كلمةً، فإنه من تكبر على العلم ذهب عنه، فإن

العلم حـرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

الشرط الثالث: التواضع للمعلم، حتى لوتحقق خطأه فليعظمه، فلو لم يكن إلا فضل التقدم والتجربة، ألا ترى إلى حديث موسى والخضر!

ويلزمه أن يعتقد أن له حقَّ أبيه، قال النبي ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم»[1].

الشرط الرابع: أن لا يخالف معلمه فيما يشير به عليه.....

الشرط الخامس: أن لا يخوض في التعليم دفعة، بل يقبل على الأهم، فإذا أكمله انتقل إلى غيره.....

= العلم والفطنة أن الفطنة هي التنبُّه على المعنى، وضدها الغفلة. ويجوز أن يقال: إن الفطنة ابتداء المعرفة من وجه غامض، فكل فطنة علم، وليس كل علم فطنة، ولما كانت الفطنة علماً بالشيء من وجه غامض لم يجز أن يقال: الإنسان فطن بوجود نفسه، وبأن السماء فوقه. وقال: الفرق بين الفطنة والذكاء أن الذكاء تمام الفطنة من قولك: ذكت النار إذا تم اشتعالها... ففي الذكاء معنى زائد على الفطنة». وأقول: التفطن عدم الغفلة، والتنبُّه للدقائق ولما يجري حول الشخص، وعدم الغفلة عنه، فالفطنة ضد الغفلة، وأما الذكاء فضد الغباء.

(١) رواه ابن ماجه (٣٧١)، وأبو داود في الطهارة (١/ ٢).

الشرط السادس: أن يذاكر ما حفظ وعلم، ولا ينبذه وراء ظهره.

الشرط السابع: أن يعمل بما علم، فذلك أثبت له علماً ونجاة.

فهذه أمهاتها، وهي مفتقرة إلى الدُّؤوب عليها دون الفتور...

وحذار من أن يطمع عبد في استقلاله بنفسه في العلوم، حتى يحتك بين يدي المعلم، فما ضل من ضل إلا بالصحف، بل إذا وصل إلى درجة النظر فله أن يستبد بنفسه، بل هو فرضه»[(١)].

١ـ ذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في «الإحياء» عشر وظائف على المتعلم والعالم، وقال:

الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فنّاً من الفنون المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه، وتطرف من البقية ـ أي أخذ من كل علم طرفاً ـ فإن العلوم متعاونة، وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

والوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم.

والوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج.

---

(١) قانون التأويل (٦٣٦-٦٣٩).

١ـ وقال ابن الجوزي: «للفقيه أن يطالع من كل فن طرفاً من تاريخ وحديث ولغة وغير ذلك، فإن الفقه يحتاج إلى جميع العلوم، فليأخذ من كل شيء منها مهمّاً».

ثم قال: «ينبغي لكل ذي علم أن يساهم بباقي العلوم، فيطالع منها طرفاً، إذ لكل علم بعلم تعلّق»[١].

٢ـ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنّ عنده بيدك، ولا تمدن بعينك غيره، ولا تقولن قال فلان خلاف قوله، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا تسارّ في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء»[٢].

وينبغي لطالب العلم أن يقرأ بعناية كتاب «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البر، وكتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي، ويضم إلى هذين الكتابين ما جمعه الإمام النووي في مقدمة كتابه «المجموع» مما يتعلق بآداب العالم والمتعلم، وما جمعه ابن جماعة في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم».

❊ ❊ ❊

(١) صيد الخاطر (٣٧٣).

(٢) في المجموع (١/ ٦٧).

المقصد الثاني
آداب المعلم في نفسه ونحو طلابه

وفيه تسعة عشر مبحثاً:

١. آداب المعلم في نفسه.

٢. آداب المعلم نحو طلابه.

٣. طريقة إلقاء الدرس.

٤. أهمية الذكاء في طلب العلم.

٥. تربية الطالب على العمل بالعلم وعلى رعاية آدابه.

٦. التدرج مع الطلبة في التربية والسلوك.

٧. تحسين المربي للحسن وتقبيحه للقبيح في مجالسه.

٨. التربية على الترفع عن حطام الدنيا وعن أهلها.

٩. التعلية من همة الطالب.

١٠. التأكيد على الطلاب في قراءة سير العلماء الربانيين.

١١. الإنصاف في البحث والرجوع إلى الحق.

١٢. مراجعة النقول من المصادر الأصلية والتثبت فيها.

١٣. تحري الأخبار القوية والأحكام المعتمدة.

١٤. تربية الأستاذ تلاميذه على قول: لا أدري.

١٥. البحث العلمي والدقة فيه والاعتناء بدراسة الكتب الدقيقة.

١٦. تربية استعداد النقد في الطالب مع التربية على الأدب فيه وتدريبه على رعاية أدب الحوار وأدب الخلاف.

١٧. معايشة طالب العلم عصره وما يترتب عليه من الفوائد.

١٨. الالتزام بمنهج جماهير الأمة والحذر من شذوذات العلماء.

١٩. إقرار أهل كل مذهب وبلد على ما هم عليه من العلم والعمل وعدم التعصب للمذاهب والمشارب.

(١)

آداب المعلم في نفسه

قال الإمام النووي عن آداب المعلم: هذا الباب واسع جداً، وقد جمعتُ فيه نفائس كثيرة، لا يحتمل هذا الكتاب عشرها، فأذكر فيه إن شاء الله تعالى نبذاً منها، فمن آدابه أدبه في نفسه، وذلك في أمور:

١ـ منها أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، ولا يقصد توصلاً لغرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاه أو شهرة أو سمعة أو تميز عن الأشياء، أو تكثر بالمشتغلين عليه أو المختلفين إليه، أو نحو ذلك.

٢ـ ولا يَشين علمَه وتعليمَه بشيء من الطمع في رفق حصل له من مشتغل عليه من خدمة أومال أونحوهما وإن قلَّ، ولو كان على صورة الهدية التي لولا اشتغاله عليه لما أهداها إليه[١].

قال الإمام ابن جماعة رحمه الله تعالى وهي اثنا عشر نوعاً:

٣ـ دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإنه أمين على ما أودع من العلم.

٤ـ أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، فلا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا.

---

(١) المجموع (١/ ٥٤).

٥ـ أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله.

٦ـ أن ينزّه علمه من جعله سُلّما يُتوصل به إلى الأغراض الدنيوية.

٧ـ أن ينزّه علمه عن دني المكاسب ورذيلها طبعاً، وعن مكروهها عادة وشرعاً، ويتجنب مواضع التهم، وما فيه نقص مروءة، أو ما يستنكر ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً.

٨ ـ وأن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام، وكذلك القيام بإظهار السنن وإخماد البدع.

٩ـ أن يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية، كتلاوة القرآن وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وما ورد من دعوات وأذكار.

١٠ـ أن يعامل الناس بمكارم الأخلاق.

١١ـ أن يطهّر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، ويعمره بالأخلاق المرضية، ثمّ ذكر بعض الأخلاق الرديئة، وقال: أدوية هذه البلية مستوفاة في كتب الرقاق، فمن أراد تطهير نفسه منها فعليه بتلك الكتب، ومن أنفعها كتاب «الرعاية» للمحاسبي رحمه الله تعالى.

١٢ـ دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجِدّ والاجتهاد، والمواظبة على العبادة، والاشتغال بالعلم قراءة وإقراءً، ومطالعة وفكراً، وتعليقاً وحفظاً، وتصنيفاً وبحثاً، ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة، أَو لِأَلَـمٍ أو غيره مما يتعذر معه الاشتغال، وكان بعضهم لا يترك

الاشتغال بعروض مرض خفيف أو ألم لطيف، بل كان يستشفي بالعلم، ويشتغل بقدر الإمكان، كما قيل:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

وذلك لأن درجة العلم درجة وراثة الأنبياء، ولا تنال إلا بشق الأنفس.

قال الربيع: لم أر الشافعي رضي الله عنه آكلاً بنهار، ولا نائماً بليل لاشتغاله بالتصنيف.

١٣ـ أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سنّاً.

١٤ـ الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة وكمال الأهلية.

أما من لم يتأهل لذلك فالإنكار عليه متجه، لما يتضمنه من الجهل، وتقرير من يقف على ذلك التصنيف به، ولكونه يضيع زمانه فيما لا يتقنه.

قال الإمام النووي في معرفة المعلم قدر العلم الذي يطلبه ويتصف به:

١٥ـ «ومنها وهو أهمها أن لا يذل العلم ولا يذهب به إلى مكان ينتسب إلى من يتعلمه منه، وإن كان المتعلم كبير القدر، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف، وأخبارهم في هذا كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم، فإن دعت ضرورة إليه، أو اقتضت مصلحة راجحة على مفسدة ابتذاله رجونا أنه لا بأس به ما دامت الحالة هذه، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف في هذا.

١٦ـ ومنها: أنه إذا فعل فعلاً صحيحاً جائزاً في نفس الأمر ولكن ظاهره أنه حرام أو مكروه أو مخل بالمروءة ونحوذلك، فينبغي له أن يخبر أصحابه ومن يراه يفعل ذلك بحقيقة ذلك الفعل لينتفعوا، ولئلا يأثموا بظنهم الباطل، ولئلا ينفروا منه، ويمتنع الانتفاع بعلمه.

ومن هذا الحديث الصحيح: «إنها صفية»[(١)] [(٢)].

* * *

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢١٩) و (٣١٠١)، ومسلم (٢١٧٧) عن صفيَّةَ بنتِ حُيَيّ أنها قالت: كانَ رَسُولُ الله ﷺ مُعْتكِفًا، فأتَـيْتُه أزُورُهُ لَيْلاً، فحَدَّثْتُه ثُمَّ قُمْت فانْقَلَبْتُ فقَامَ ليقْلِبَني، وكانَ مَسْكَنُها في دَارِ أسَامَة، فمَرَّ رَجُلانِ مِنَ الأنْصَارِ، فلَمَّا رَأيا النَّبيَّ ﷺ أسْرَعا، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُما إنَّها صَفيَّةُ بنْتُ حُيَيٍّ»، فَقَالا: سُبْحَانَ الله يا رَسُولَ الله قَال: «إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنَ الإنْسَانِ مجرَى الدَّم، وإنِّي خَشِيتُ أنْ يقْذِفَ في قُلُوبِكما شَرًّا» أو قَال: «شَيئًا».

(٢) المجموع (١/ ٥٥).

(٢)

آداب المعلم نحو طلابه

من أهم ما يجب على المعلم نحو المتعلم الأمور التالية:

١ ـ أن يكون شاعراً أنه مُوَقِّع عن الله تعالى، وخليفة لرسول الله ﷺ، ونائب عنه، «والعلماء ورثة الأنبياء»[١] وأنه في مقام القدوة والأسوة الحسنة أمام تلاميذه، فيسعى بكل جهده في التطبيق العملي لما يعلمهم إياه ويربيهم عليه.

٢ ـ أن ينظر إلى طالب العلم أنه هبة إلهية ساقها الله تعالى إليه، ويغتنم فرصة تعليمه للعلوم الإسلامية وتربيته على الأخلاق الإسلامية الرفيعة والآداب الإسلامية العالية، ويرسخ في قلبه الوعي بالدعوة الإسلامية، وينشئه على معرفة أساليبها ويدربه عليها.

٣ ـ أن يكون شاعراً بأنه بمنزلة الوالد لهم، فيشفق عليهم وينصحهم ويرعاهم بالتربية والعون والمساعدة، ويشعرهم بأنه بمنزلة الوالد لهم، بل يشعرهم بأنه أفضل وخير لهم من والدهم.

٤ ـ إخلاصه في تعليمهم ونصحهم حتى تتحقق بركة التعليم والنصح، ويعم النفع بهما حالاً ومآلاً، وورد في وصية أبي حنيفة لتلميذه أبي يوسف «وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً لتزيدهم رغبة في العلم»[٢].

---

(١) الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١).

(٢) والوصية بتمامها واردة في (مناقب الموفق المكي) (٣٧٣).

٥ ـ وقال الإمام ابن جماعة: «واعلم أن الطالب الصالح أعود على العالم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه، وأقرب أهله إليه، ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم».

ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يتصل شيء من علمه الى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر[١].

٦ ـ ونقل ابن أبي العوام عن الإمام أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه كان يقول لبعض أصحابه: «لوقدرت أن أقاسمكم ما عندي وما في قلبي من العلم لفعلت»[٢].

ونقل تاج الدين السبكي عن الإمام الشافعي أنه قال لتلميذه الربيع بن سليمان المرادي: «لوأمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك»[٣].

٧ ـ وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح حديث «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً من طرق الجنة... وإن العلماء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٤] قال: فيه إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن العالم الذي هو وارث للرسول حقيقة كما أنه ورث علمه فينبغي أن يورَّثه كما ورَّث الرسول ﷺ العلم. وتوريث العالم العلم هو أن يخلفه بعده بتعليم أوتصنيف ونحو ذلك مما ينتفع به.

---

(١) التذكرة (٦٣).

(٢) المناقب (٣١٢).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/ ١٣٤).

(٤) جامع العلوم والحكم (٥٧).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث من صدقة جارية، أوعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوله»[١] فالعالم إذا علّم من يقوم به بعده فقد خلف علماً نافعاً وصدقة جارية، لأن تعليم العلم صدقة جارية، والذين علمهم بمنزلة الأولاد الصالحين يدعون له، فيجتمع له بتخليفه علمه هذه الخصال الثلاث.

والأمر الثاني: أن من كمال ميراث العالم لرسول الله ﷺ أن لا يخلف الدنيا كما لم يخلفها ﷺ، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنته في زهده في الدنيا وتقلله منها، واجتزائه منها باليسير.

٨ ـ وينبغي للعالم المعلم أن لا يغيب عن قلبه حديث أسامة بن زيد مرفوعاً: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[٢].

٩ ـ ومن إخلاص المعلم أن يحذر كل الحذر من أن يفكر في أن التعليم مهنة كغيره من المهن، بل عليه أن يشعر أنه عبادة من أعظم العبادات، قال الإمام النووي: «اعلم أن التعليم هوالأصل الذي به قوام الدين، وبه يؤمن امّحاق العلم، فهو من أهم أمور الدين، وأعظم العبادات، وآكد فروض الكفايات»[٣].

١٠ ـ ومن إخلاصه أن يجتهد تمام الاجتهاد في تعليمهم وإيصالهم أكبر قدر ينفعهم، ويراعي في ذلك مستواهم العلمي، لا يزيد على مستواهم، ولا ينقص عنه.

---

(١) رواه الترمذي (١٤٣٢) وأحمد (٨٩٦٦) تقدم تخريجه ص١٦.

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٤: ٢٢٠٩، ٥١)

(٣) مقدمة المجموع (١/ ٣٠).

١١ ـ ومن آثار إخلاصه أن يسعى لغرس المحبة المتبادلة بينه وبين الطلاب حتى تتم الفائدة له ولهم، له بالأجر والثواب والصدقة الجارية والذكر الحسن، ولهم بمزيد الانتفاع والاجتهاد في الطلب.

١٢ ـ ومن أسباب المحبة أن يكون هيّناً ليّناً، لا يعنف ولا يثبط همة طالب، بل ينهض بهمتهم، ويبشرهم بأنهم سيكونون ـ إن شاء الله تعالى ـ علماء الأمة ومرشديها وقادتها.

١٣ ـ ومن أسبابها سؤاله عن الواحد منهم، واهتمامه بأمره إذا غاب، وعيادته إذا مرض، وإظهار ذلك لهم، وتفقده حاجته المادية المالية ونحوذلك من أموره الخاصة، وأمور من يتصل به اتصالاً وثيقاً كوالديه وإخوته، ولاسيما عند المهمات والمدلهمات، وللسلف الصالح والخلف الناصح من هذه الأمور قصص كثيرة غريبة تطلب من التاريخ الإسلامي العام والخاص.

وقد اعتنى العلماء والمربون ببيان وظائف المعلم المربي نحو المتعلم، فذكر منها الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» ثماني وظائف، وذكر منها ابن جماعة أربع عشرة وظيفة[1]، وذكر مجموعة مهمة منها الإمام النووي، وأطاب الكلام فيها في مقدمة «المجموع».

ونورد هاهنا عناوين ما ذكره الغزالي، قال رحمه الله تعالى:

١٤ ـ «**الوظيفة الأولى**: الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه.

١٥ ـ **الوظيفة الثانية**: أن يقتدي بالنبي ﷺ فلا يطلب على التعليم جزاء ولا شكوراً.

---

(١) التذكرة(٤٧-٦٦).

وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم حتى بعد انفصاله من شيخه.

١٦ ـ **الوظيفة الثالثة**: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، ومن الاشتغال بعلم خفي قبل فراغه من الجلي، وينبهه على أن الغرض بطلب العلم التقرب إلى الله تعالى.

١٧ ـ **الوظيفة الرابعة**: أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح ولا يوبخ فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة.

١٨ ـ **الوظيفة الخامسة**: أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه.

١٩ ـ **الوظيفة السادسة**: أن يراعي في تعليمه مقدار ذكائه ومستواه العلمي، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، ولا ما لا يناسب مستواه.

٢٠ ـ **الوظيفة السابعة**: أن يراعي المتعلم القاصر، وأن يلقي إليه الجلي اللائق بحاله.

٢١ ـ **الوظيفة الثامنة**: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يكذب قولَه فعلُه».

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال علي رضي الله عنه: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك».

٢٢ ـ وقال الإمام النووي: «وينبغي أن لا يتعظم على المتعلمين، بل يلين لهم ويتواضع، فقد أمر الله تعالى بالتواضع لآحاد الناس، قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[١].

---

(١) رواه مسلم (٤٦٩٥).

فهذا في التواضع لمطلق الناس، فكيف بهؤلاء الذين هم أولاده! مع ما هم عليه من الملازمة لطلب العلم، وما لهم عليه من حق الصحبة، وترددهم إليه واعتمادهم عليه»[١].

٢٣ ـ وقال الإمام النووي: «ويستحب للمعلم أن يرفق بالطالب، ويحسن إليه ما أمكنه، فقد روى الترمذي بإسناده عن أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن النبي ﷺ قال: إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتون من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[٢].

٢٤ ـ وقال: «وينبغي للمعلم أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل، ويختبر بذلك أفهامهم، ويظهر فضل الفاضل ويثني عليه بذلك ترغيباً له، وللباقين في الاشتغال والفكر في العلم، وليتدربوا بذلك ويعتادوه، ولا يعنف من غلط منهم في كل ذلك إلا أن يرى تعنيفه مصلحة له.

٢٥ ـ وإذا فرغ من تعليمهم أو إلقاء درس عليهم أمرهم بإعادته ليرسخ حفظهم له، فإن أشكل عليهم منه شيء ما عاودوا الشيخ في إيضاحه.

٢٦ ـ ومن أهم ما يؤمر (المعلّم) به أن لا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعلم وجه الله تعالى الكريم.

وقد قدمنا عن علي ـ رضي الله عنه ـ الإغلاظ في ذلك والتأكيد والتحذير منه، وهذا إذا كان المعلم الآخر أهلاً، فإن كان فاسقاً أو مبتدعاً أو كثير الغلط ونحو ذلك فليحذر من الاغترار به. والله تعالى ولي التوفيق»[٣].

---

(١) المجموع (١/ ٥٨).
(٢) رواه الترمذي (**٢٥٩٣**)، وابن ماجه (**٢٦٥١**).
(٣) المجموع (١/ ٦٤).

(٣)

طريقة إلقاء الدرس

قال الإمام النووي: «وإذا ذكر لهم درساً تحرى تفهيمهم بأيسر طرق، ويذكر مترسلاً مبيناً واضحاً، ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه إلا إذا وثق بأن جميع الحاضرين يفهمون بدون ذلك، وإذا لم يصل البيان إلا بالتصريح بعبارة يستحي في العادة من ذكرها فليذكرها بصريح اسمها.... ويؤخر ما ينبغي تأخيره ويقدم ما ينبغي تقديمه»[١].

وقال الإمام الغزالي: «(وينبغي) أن يراعي (المعلم) في تعليمه مقدار ذكائه ومستواه العلمي، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، وما لا يناسب مستواه، وأن يراعي المتعلم القاصر، وأن يلقي إليه الجلي اللائق بحاله».

وقال الإمام ابن جماعة في «التذكرة»: «وينبغي أن لا يطيل الدرس تطويلاً مملاً، ولا يقصره تقصيراً مخلاً، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة في التطويل، ولا يبحث في مقام أو يتكلم على فائدة إلا في موضع ذلك، فلا يقدمه عليه ولا يؤخره عنه، إلا لمصلحة تقتضي ذلك وترجحه».

وقال: «إذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح».

---

(١) المجموع (١/ ٦٣).

وقال: «جرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس: والله أعلم».

وقال الإمام ولي الله الدهلوي في (القول الجميل): «ويجب في التدريس مراعاة أشياء:

١ ـ شرح الغريب لغة، والعويص المغلق نحواً.

٢ ـ وتوجيه المسائل بأن يصورها بالأمثلة الجزئية، وتبيين حاصلها.

٣ ـ وتقريب الدلائل لتحصيل النتيجة بلزوم بعض المقدمات لبعض، واندراج بعضها في بعض.

٤ ـ وبيان فوائد القيود في التعريفات والقواعد الكلية.

٥ ـ ووجوه الحصر في التقسيمات.

٦ ـ ودفع الشبه الظاهرة كمختلفين يرى أنهما مشتبهان، أو مشتبهين يرى أنهما مختلفان من المذاهب والتوجيهات والعبارات.

٧ ـ وكلزوم ما يمتنع في التعريفات: كالاستدراك، وذكر الأخفى، وفي البراهين: كجزئية الكبرى وسلب الصغرى.

٨ ـ أو لزوم قادحٍ في اللزوم والاندراج، أومخالفة بعبارة أخرى أو لكلام إمام من الأئمة.

فالعالم لا يفيد تلامذته فائدة تامة حتى يبين لهم هذه الأمور ثم ينبه عليها في الدرس».

❊ ❊ ❊

(٤)

أهمية الذكاء في طلب العلم

والذكاء نوعان:

وهبي يولد عليه صاحبه، وكسبي يكتسب من العناية بالعلم والتعلم، ومن طول الممارسة للقراءة ومن خوض غمار الحياة وتجاربها.

ومـن واجبات الشيخ أن يتخير من تلاميـذه الأذكياء النجباء ويركز عليهـم، ويتعهدهم ويتفقد مصالحهم، ويسعى لكفايتهم ليتفرغوا للعلم، ويتم استثمار مواهبهم، كما أن من واجبات الاستاذ أن يصبر على الصنف الثاني حتى لا يضيعوا.

وقد ثبت في التاريخ أن كثيراً ممن صبر عليهم أساتذتهم من هذا الصنف قد بلغ درجة عالية في العلم، ومنهم من صار إماماً في بعض العلوم.

❊ ❊ ❊

(٥)

تربية الطالب على العمل بالعلم وعلى رعاية آدابه

مما يتعين على المعلم المربي أن يعتني بترغيب طلابه على العمل بالعلم، وعلى رعاية آدابه، ويجب على المعلم أن يركز دائماً على هذا الأمر، ويكرره على حسب الحاجة، ولا يغفل عنه، ويبين لهم دائماً أن المقصود من تعلم العلم هو العمل، وأن العمل هو ثمرة العلم، ويبين لهم أن من العمل بالعلم تعليمه وتبليغه للناس، وأن وراثة النبوة إنما تتحقق بالعمل بالعلم وتعليمه وتبليغه للناس.

ويستعين المربي في ذلك أولاً بأن يكون هو أسوة حسنة وقدوة صالحة لهم، وذلك لأن العلوم الإسلامية لا بد أن تكون مقترنة بالتربية، وحاجة التربية إلى الأسوة الحسنة أشد من حاجتها إلى التذكير والوعظ، وثانياً بإيراد الآيات والأحاديث والآثار المنقولة عن السلف المتعلقة بهذه الأمور، والتي تحض على العمل بالعلم وعلى محاسبة النفس على الأقوال والأفعال وأعمال القلوب، ويحض المربي الطالب على قراءة الكتب المتعلقة بالموضوع، وعلى قراءة تراجم الأئمة، وكبار علماء الأمة الربانيين من مثل «حلية الأولياء»، ومختصرها «صفوة الصفوة» لابن الجوزي، ومثل «سير أعلام النبلاء» من الكتب المؤلفة في تراجم العلماء الربانيين والمجددين، المشتملة على أخبار عملهم بالعلم والتزامهم بآداب العلم، وعلى تفانيهم في سبيل الدعوة والتبليغ، وعلى تضحيتهم في هذا السبيل بالنفس والنفيس.

روى الخطيب عن الإمام مالك أنه قال: «إن حقاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله»[١].

وفي مناقب الشافعي للبيهقي أن الإمام مالك قال للشافعي عندما بدأ بقراءة الموطأ عليه: «يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن»، وقال له: «إن الله عز وجل قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بالمعصية»[٢].

وحكى الزرنوجي عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: «إنما أدركت العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمت ووقفت على فقه وحكمة فقلت الحمد لله ازداد علمي»[٣].

وفي طبقات الحنفية لعلي القاري أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى كان إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: «ما هذا إلا لذنب أحدثته»، وكان يستغفر وربما قام وصلى فتنكشف له، وكان يقول: «رجوت أنه تيب علي»، فبلغ ذلك الفضيل بن عياض، فبكى بكاء شديداً ثم قال: «ذلك لقلة ذنبه فأما غيره فلا ينتبه له»[٤].

وروى الخطيب عن أبي عصمة البيهقي قال: «بت عند أحمد بن حنبل فجاء بالماء فوضعه فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: «سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل!»».

وروى أيضاً عن الحسن البصري قال: «كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره ويده»[٥].

---

(١) الجامع (٢١٢).
(٢) مناقب الشافعي (١/ ١٠٢).
(٣) تعليم المتعلم (٧٥).
(٤) طبقات الحنفية (٢/ ٢٨٧).
(٥) الجامع (١٧٦-١٨٢).

وقال ابن القيم في مدارج السالكين: «أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب».

وقد كان السلف يتعلمون الهَدْي كما يتعلمون العلم، بل كانوا يطلبون الأدب ثم العلم.

وكان يجتمع على كبار المحدثين وقت الإملاء المئات والآلاف من طلبة العلم، وكان الذين يكتبون منهم قليلاً، وكان الآخرون يتعلمون الهدي والأدب.

حكى الذهبي أنه كان يجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمسمائة منهم يكتبون، والباقون منهم يتعلمون منه حسن الأدب والسمت[1].

وقد تقدمت مجموعة من الآثار عن هذا الأمر.

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٦) قال ابن الأثير في «النهاية» (٣/ ١٣١): الدَّل والهدي والسمت عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار، وحسن السيرة والطريقة، واستقامة النظر والهيئة.

(٦)

التدرج مع الطلبة في التربية والسلوك

وكما يجب على المعلم رعاية التدرج للطالب في تعليم العلوم وإلقائها إليه كذلك يجب عليه أن يتدرج به في التربية والسلوك، وهذا يقتضي مراقبة الشيخ للطالب مراقبة حثيثة، وملاحظته له ملاحظة دقيقة، حتى يقوّم له تصرفاته، ويسدد له أقواله وأفعاله.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «ينبغي ـ للمعلم ـ أن يؤدب المتعلم على التدرج بالآداب السنية، والشيم المرضية، ورياضة نفسه بالآداب والدقائق الخفية، وتعوده الصيانة في جميع أموره الكامنة والجلية، فأول ذلك: أن يحرضه بأقواله وأحواله المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النية، ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات، ويعرفه أن بذلك تنفتح عليه أبواب المعارف، وينشرح صدره، ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف، ويزهده في الدنيا، ويذكره أنها فانية، والآخرة آتية باقية، وينبغي أن يرغبه في العلم، ويذكره بفضائله وفضائل العلماء، ولا رتبة أعلى منه»[١]. انتهى ملخصاً.

وقال الكوثري في مقال له عن إحياء علوم السنة بالأزهر: «إن المربي الفاضل لا يفتأ يسهر على أحوال الطلبة في أكلهم، وشربهم، ونظافتهم، وأزيائهم، ومخاطباتهم، ومعاملاتهم، ولهجاتهم، وكيفية سيرهم في الطرقات، وأحوالهم ليلاً ونهاراً سيراً خاصاً، ليتمكن من تخريج هداة مهذبين حقاً».

---

(١) المجموع (١/ ٥٨).

في فتح المغيث للسخاوي قال المزني: «سمعني الشافعي يوماً ـ وأنا أقول: فلان كذاب ـ فقال لي: «يا إبراهيم اكس ألفاظك أحسنها، لا تقل: فلان كذاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء»»[١].

وروى القاضي عياض عن شيخه الإمام أبي علي الصدفي أنه سمع شيخه الإمام أبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي ـ رحمهم الله تعالى ـ يقول: «يقبح بكم أن تستفيدوا منّا علما ثم تَذكروننا ولا تترحموا علينا»[٢].

وقد روى أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[٣].

❊ ❊ ❊

(١) فتح المغيث (٢/ ٢٩٢).
(٢) الإلماع (٢٢٦-٢٢٧).
(٣) أبو داود (١٦٦٩)، والنسائي (٢٣٤٨).

(٧)

تحسين المربي للحسن وتقبيحه للقبيح في مجالسه

من أهم أسباب إرشاد الطالب وتربيته وتعلِيَة همَّته أن يكون الشيخ المربي معتنياً في مجالسه الخاصة والعامة بتحسين الحسن وتقبيح القبيح، وهذا ما كان النبي ﷺ يركز عليه في مجالسه، وهو من أهم وسائل تربية النبي ﷺ لأصحابه خاصة ولأمته عامة، فقد روى هند بن أبي هالة رضي الله تعالى عنه في حديثه المشهور الطويل في شمائل النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ كان يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه»[١].

فمن المؤكد على الشيخ المربي أن يعتني بتطبيق هذه التربية النبوية في مجالسه، فيحسّن فيها الحسن، ويقوّيه، ويقبّح القبيح، ويوهِّيه، ويخص تلاميذه، فيحسّن فيهم الحسن، ويقبّح فيهم القبيح، فإذا رأى نجابة من طالب في علم أو خلق حسّنه منه وشجعه على الاستمرار عليه، وفي هذا تشجيع لزملائه، ومدعاة لهذا الطالب أن يزداد همة ونبوغاً ونباهة، وكذلك إذا رأى أو ذكر له مكروه قبحه وذمه، وقبح فاعله وذمه تلميحاً أوتصريحاً إذا اقتضى الأمر التصريح، وليكن هذا برفق، وذلك ليكون تربية لهم جميعاً على استهجان هذا القول أوالفعل.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل المحمدية (٣٣٦).

(٨)

التربية على الترفع عن حطام الدنيا وعن أهلها

من تحسين الحسن وتقبيح القبيح أن يركز الشيخ المربي على تقبيح الدنيا ومتاعها في أعين الطلبة، وأن يربيهم على الترفع عن حطام الدنيا وعن مقاربة أهلها من الأمراء والأغنياء، ويرغبهم في عزوف النفس والقلب عن زخارفها وبهارجها ومتاعها، وفي مباعدة أهلها، إلاعند الحاجة الشديدة إلى مقاربتهم، أوعند الضرورة، فيكتفي من المقاربة بقدر الحاجة والضرورة، ولا يسترسل فيها، وليتق تسويلات النفس وتزيينات الشيطان في الاسترسال في مقاربتهم.

والرضا بالقليل من الدنيا وبالكفاف منها خير وسيلة للعزوف والانكفاف عنها.

وليحذر طالب العلم من أن ينطبق عليه ما قاله الإمام الغزالي: «من طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادماً، والخادم مخدوماً»[١].

وذكر الحافظ القرشي في ترجمة أبي الحسن علي بن الحسن الصندلي المتوفى سنة (٤٨٤) رحمه الله تعالى أن السلطان قال له: «لم لا تجيء إلي؟» فقال له: «أردت أن تكون من خير الملوك، حيث تزور العلماء، ولا أكون من شر العلماء حيث أزور الملوك»[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٦).

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢/ ٥٥٤).

وأشار رحمه الله تعالى بهذا الكلام إلى الحكمة التي أثرت عن بعض السلف: «خير الأمراء على أبواب العلماء، وشر العلماء على أبواب الأمراء».

❊ ❊ ❊

(٩)

التعلية من همة الطالب

على المعلم المربي أن يعتني برفع همة الطالب وتعليتها، ويحثه دائماً أن يكون من أصحاب الهمم العلية، ولا يرضى بالمراتب الدنية، ويذكره بأنه مرشح لوراثة الأنبياء، ولقيادة الأمة وريادتها، وأن هذا منصب لا منصب فوقه.

وقد أرشدنا الله تعالى إلى أن نكون من أصحاب الهمم العلية بقوله تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] حيث أرشدنا الله تعالى إلى أن ندعوه أن يجعلنا أئمة للمتقين، وهو مطلب لا مطلب فوقه، ومرتبة لا مرتبة أعلى منها بعد مرتبة النبوة، كما أرشد النبي ﷺ إلى ذلك بمجموعة من الأحاديث منها ما يلي:

قال النبي ﷺ: «إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»[١].

وقال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[٢].

وقال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، لكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٣].

---

(١) الطبراني (٧٦).

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١١).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢٢).

ومن وسائل رفع همة الطالب أن يقدّم المتأهل منهم لإمامة، أو خطابة، أو موعظة، أو ينقل عن أحدهم مسألة علمية، أوينوه بذكره، أمام العامة، أوأمام أقرانه، وأن يكون له على الأذكياء منهم مزيد من الإقبال والتعظيم والتنويه بقدرهم.

قال الإمام النووي: «وينبغي أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم، ويسألهم عما ذكره من المهمات، فمن وجده حافظاً مراعياً له أكرمه وأثنى عليه، وأشاع ذكره، ما لم يخف فساد حاله بإعجاب ونحوه.

ومن وجده مقصراً عنفه إلا أن يخاف تنفيره، ويعيده له حتى يحفظه حفظاً راسخاً، وينصفهم في البحث، فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً»[١].

وأخبار العلماء في هذا الأمر كثيرة تُطلب من مظانها، ومن مظانها كتب التراجم الخاصة والعامة.

والأصل في هذا ما ثبت عن النبي ﷺ من إرشاد أصحابه إلى ما تميز به بعضهم من صفات نبيلة وخصائص جميلة، منها ما رواه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٢].

وروى حذيفة عن النبي ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدي أبو بكر وعمر، وتمسكوا بعهد عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه»[٣].

---

(١) المجموع (١/ ٦١).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٩٠، ٣٧٩١) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٨٢٤٢)، وابن ماجه (١٥٤).

(٣) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٥).

وبهذين الحديثين استدل الخطيب على ما قاله رحمه الله تعالى: «ويستحب للفقيه أن ينبه على مراتب أصحابه في العلم، ويذكر فضلهم ويبين مقاديرهم، ليفزع الناس في النوازل بعده إليهم، ويأخذوا عنهم»[١].

❊ ❊ ❊

(١) آداب الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٠٩).

(١٠)

التأكيد على الطلاب
في قراءة سير العلماء الربانيين

ومن وسائل تعلية همة الطالب أن يرشد المعلم طلابه إلى قراءة سير كبار الأئمة، ودراسة شيم الربانيين والمجددين من علماء الأمة، وأن يؤكد عليهم في هذا الأمر، حتى يطلعوا على أخبارهم العلمية، وعلى تفانيهم في طلب العلم، وتضحيتهم في سبيله، ويتحققوا من أخبارهم العملية والتعليمية والتبليغية، وما قاموا به من المجاهدات العظيمة، وما تحملوه من المشاق الشديدة في هذا الباب.

فإن في قراءة سيرهم معايشة لهم، وبها تسري أحوالهم في أرواح قارئيها سريان الماء في العود الأخضر، فيشتد ويقوى ويثمر، فيقوم قارئها بتقليدهم ومحاكاتهم في ما قاموا به،أوفي قريب مما قاموا به، أوفي قسم منه، فإن لم يقم بشيء من ذلك فلا أقل من أن يكون شاعراً بعجزه وضعفه وقصوره عن تلك المراتب العلية، فيكون أبعد ما يكون عن الدعاوي الباطلة، وعن الإعجاب بالنفس القاتل، ويكون دائماً معظماً للسلف الصالح، وموقراً لهم ومتأدباً معهم، ومحاولاً لاقتفاء أثرهم.

ومن أهم الكتب التي ينصح بقراءتها في هذا المجال «الرسالة القشيرية» من كتب التراجم والأخلاق، ودراسة «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، و«الطبقات الكبرى» للإمام تاج الدين السبكي من كتب التاريخ والتراجم، وكتاب «حياة الصحابة»

لمحمد يوسف الكاندهلوي، ففي هذه الكتب وأمثالها العلم، والعمل، والسلوك، وفيها هدي السلف ومن تبعهم بإحسان من العلماء السائرين على نهجهم رحمهم الله تعالى أجمعين.

❊ ❊ ❊

(١١)

الإنصاف في البحث والرجوع إلى الحق

من مهمات العالم المربي أن يربي تلاميذه على الإنصاف في المسائل العلمية، وعلى الرجوع إلى الحق والصواب فيما سبق إليه لسانه، أو زلّ فيه قلمه، وعدم التعصب للمذهب والمشرب، والمؤلف الفلاني والشيخ الفلاني.

والإنصاف يدور على معنى العدل، وإعطاء الحق وأخذه دون جور أوزيادة أونقص، والعدل هنا العدل في مسائل العلم والدين، ومع المخالفين لك في الرأي.

والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، أي لا يحملنكم الخلاف والعداوة والبغض لقوم على أن لا تعدلوا معهم.

وروى البخاري في صحيحه عن عمار بن ياسر تعليقاً: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[١].

قال الإمام ابن عبد البر: «من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم».

ونقل عن الإمام مالك رحمه الله تعالى قال: «ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف»[٢].

---

(١) البخاري ـ كتاب الإيمان الباب (٢٠).

(٢) جامع بيان العلم (١/ ٥٣٠).

وأخبار الأئمة في هذا كثيرة، وفي تتبعها عسر.

ورائدهم في هذا الخلق أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصته الشهيرة التي أوردها أبو يعلى في مسنده الكبير ونقلها ابن حجر[١].

قال مسروق: ركب أي ـ صعد ـ عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ المنبر منبر رسول الله ﷺ فقال: «لا أعرفن ما زاد من الصداق على أربع مئة درهم، ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا في صَدُقاتهن على أربعمئة درهم؟ قال نعم، قالت: أما سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] فقال: اللهم غُفراً! كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع، فركب المنبر فقال: أيها الناس إني نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربع مئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب، أو فمن طابت نفسه فليفعل».

وإن إنصاف العالم في مباحثاته لهو من أقرب الطرق للوصول إلى الحق له ولمباحثيه وسامعيه وقارئي كلامه.

والإنصاف يجنب صاحبه عثرات اللسان والقلم، ويبعده عن الشغب في العلم، وعن المغالطات.

ومَن جانَبَ الإنصاف فقد مال إلى الهوى، وهو شأن أهل البدع.

أسند الدارقطني إلى الإمام وكيع بن الجراح أنه قال: «أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) المطالب العالية (١٥٦٦).

(٢) سنن الدارقطني (٣٦).

(١٢)

مراجعة النقول من المصادر الأصلية والتثبت فيها

من مهمات الشيخ العلمية نحو أصحابه أن يدربهم على أمر من الأهمية بمكان، وهو مراجعة النصوص، ونقلها من مصادرها الأصلية، فإذا كلف الشيخ أحد تلاميذه بكتابة بحث أو تحقيق جزء ما، كان عليه أن يلزمه بنقل نقوله وتخريجها من مصادرها الأولى، والأقدم منها مهما يتيسر ذلك.

مثلاً نقل الإمام ابن حجر الهيتمي حكماً فقهياً عن «المجموع» للإمام النووي، فعليك أن تراجعه، فإذا راجعته فوجدته ينقله عن «البيان» للعمراني فعليك أن تراجعه من «البيان»، فإذا راجعته فوجدته ينقله عن «مختصر المزني»، فعليك أن تراجعه.

وبعد مراجعة المصدر الأصلي للنص، لا بد من التثبت فيه بمقابلة المنقول بمصدره المنقول عنه، حتى يتأكد من صحة النص، ومن أنه هل نقل بنصه، أونقل باختصار أوبالمعنى، والاختصار والنقل بالمعنى قد يوقع في خلل لا بد من توقيه، والتنبيه عليه.

وبعد ذلك لا بد من الفهم الصحيح للنص، حتى يصح له اعتماده، أوتقويمه، أونقده، وهذه هي المرحلة الأخيرة بالنسبة لنقل النص، وهي الأهم والمقصودة من نقله، وهي مرحلة خطيرة لا يتمكن من القيام بها على الوجه الصحيح إلا من تمكن من موضوع النص، ورزقه الله تعالى ذكاء ثاقباً وعقلاً ناقداً، وسدده ووفقه، ويعوق دون القيام بها استحكام التقليد للسابقين، واعتقاد أنه «ما ترك الأول للآخر» وقد

قال المحققون: لا أضر على العلم من هذه الكلمة، وأن الكلمة الصحيحة هي التي تقابلها وهي: «كم ترك الأول للآخر».

وقد درست على مشايخ فضلاء كبار، لكن التقليد كان قد استحكم فيهم، كما هو العادة المطردة في العلماء المتأخرين إلا من رحم الله، ولم أجد العقل الناقد فيهم إلا عند شيخنا المربي العظيم والمرجع الحكيم الشيخ محمد العربكندي، فقد كان على منهج «كم ترك الأول للآخر»، وكان يسير على هذا المنهج في دروسه وشؤونه، وكان يكرر هذه الكلمة المباركة.

نعم هناك مثقفون، ومن أنصاف المتعلمين من يحاول السير على هذه المنهج إعجاباً بالنفس، وتعدياً للطور، فيحرفون العلم ويمسخونه، ورحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتعد طوره.

والنقد لا يجوز إلا للمتأهل له، ولا بد فيه أولاً من الإنصاف، ثم الأدب واللطف، واجتناب الاستعلاء والزهو، وما من عالم إلا يصيب ويخطئ.

نقل ابن عبد البر عن بعض الأئمة قوله: «لا يسلم العالم من الخطأ، فمن أخطأ قليلاً وأصاب كثيراً فهو عالم، ومن أصاب قليلاً وأخطأ كثيراً فهو جاهل»[1].

ومن التثبت في النقل عدم أخذ الحكم الفقهي المذهبي إلا من كتب ذلك المذهب، ومن الباب المخصص لذلك الحكم، وقد نبّه العلماء على هذا الأمر، فقد يخطئ العلماء في عزو الحكم إلى غير مذهبهم، أو يعزون إليه القول غير المعتمد في ذلك المذهب.

وعندما يرد الحكم الفقهي في غير بابه فقد يطلق ولم يقيد بقيوده وشروطه، فلا بد من التنبه لهذا الأمر.

---

(١) الجامع لابن عبد البر (١٥٤٠).

ومما ينبغي التثبت فيه الاستدراكات على العلماء السابقين، لا سيّما في حال النفي، فكثيراً ما يخطئ العلماء فيه، وذلك كأن يعزو أحد إخراج الحديث إلى البخاري، فيأتي آخر فيستدرك عليه أن البخاري لم يخرجه، لأنه تتبع مظانّ إخراجه في البخاري فلم يجده فيها، مع أن البخاري قد رواه في باب آخر لمناسبة خفية، على عادة البخاري في تقطيع الحديث وإيراد بعض قطعه في باب لا تظهر المناسبة في إيرادها فيه.

وأما في حال الإثبات فالأمر سهل.

❊ ❊ ❊

(١٣)

تحري الأخبار القوية والأحكام المعتمدة

من مهمات الشيخ والمؤكد عليه في نفسه وفي تدريب أصحابه عليه ـ فإن هذا من مهمات كل طالب علم وعالم ـ أن يتحرى في حديثه ومواعظه ومحاضراته وكتاباته الأخبار القوية الثبوت من الأخبار الصحيحة والحسنة، لكنه لا بأس بأن يتسامح في مقام الفضائل ـ فضائل الأعمال وفضائل الأشخاص ـ في إيراد الأخبار الضعيفة غير الواهية، لا سيما إذا كان لها من شواهد الكتاب والسنة ما يقويها ويؤيدها.

وعليه أن يتجنب الأخبار الواهية، والروايات التالفة، والغرائب المستنكرة.

كما أنه من المؤكد عليه في نفسه وأن يدرب طلابه عليه أن يتحرى من الأقوال في تفسير كتاب الله، وشرح حديث رسول الله ﷺ، ومن المذاهب المتعلقة بالأحكام الشرعية عملية كانت أو غير عملية ما هو أقواها وأقربها إلى الحق، ولا يليق بالعالم أن يكون مصدر ما يستغرب ويستنكر في دين الله تعالى.

وهذا من فوائد المشاركة في دراسة العلوم الشرعية عامة، وعدم الاقتصار على قسم منها.

ولا سيما إذا كانت هذه الدراسة على عالم متمكن منفتح العقل واسع التفكير، ناقد بصير، واع خبير.

ومما له دور كبير في حصول هذا الوعي وتمكّنه عند طالب العلم دراسة علم «مصطلح الحديث» وعلم «أصول الفقه»، فإن دراسة هذين العلمين تفتح آفاق معرفته، وتنقح معلوماته، وتصحح أخباره، وتنور أفكاره، فإن في هذين العلمين ميزاناً للمنقول والمعقول.

(١٤)

تربية الأستاذ تلاميذه على قول: لا أدري

من مهمات الشيوخ تجاه أصحابهم أن يعودوهم إذا ذكر أمامهم أمر ليس لهم به علم أن يقولوا: لا أدري، والله أعلم، وأن يورثوهم ذلك بقولهم: لا أدري إذا سئلوا عن قضية لم يسبق لهم دراستها واستيعاب النظر فيها.

روى الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن التابعي الثقة محمد ابن عجلان أنه قال: «إذا أخطأ العالم لا أدري أُصيبتْ مقاتله» رواها ابن عبد البر[١] وغيره وقد قالوا: «لا أدري نصف العلم».

قال الغزالي: قال الشافعي: «شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين: لا أدري».

وسأل رجل علياً رضي الله عنه عن شيء فأجاب، فقال السائل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا، فقال علي رضي الله عنه: «أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم»[٢].

وفي «ترتيب العلوم» لساجقلي زاده: «وفي بعض الكتب: سئل علي رضي الله عنه عن شيء على المنبر فقال: لا أدري، فقيل له: ليس هذا مكان الجهال، فقال: هذا مكان الذي يعلم شيئاً ويجهل شيئاً، وأما الذي يعلم ولا يجهل شيئاً فلا مكان له».

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ٤٩).

(٢) الإحياء (١/ ٣٧).

وسئل أبو يوسف عن شيء فقال: «لا أدري»، فقيل له: «تأكل من بيت المال كل يوم كذا كذا درهماً فتقول: لا أدري»؛ فقال: «آكل بقدر علمي، ولو أكلته بقدر جهلي ما كفاني ما في الدنيا جميعاً»[١].

قال الإمام النووي قالوا: «ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري»، معناه يكثر منها، وليعلم أن معتقد المحققين أن قول العالم: لا أدري، لا يضع منزلته، بل هو دليل على عظم محله وتقواه، وكمال معرفته، لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة، بل يُستدل بقوله: «لا أدري» على تقواه، وأنه لا يجازف في فتواه، وإنما يمتنع من «لا أدري» من قل علمه وقصرت معرفته، وضعف تقواه، لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين، وهو جهالة منه، فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم، ولا يرفعه ذلك عما عرف له من القصور بل يستدل به على قصوره، لأنا إذا رأينا المحققين يقولون في كثير من الأوقات: «لا أدري»، وهذا القاصر لا يقولها أبداً علمنا أنهم يتورعون لعلمهم وتقواهم، وأنه يجازف لجهله وقلة دينه، فوقع فيما فر منه، واتصف بما احترز عنه، لفساد نيته، وسوء طويته، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) المجموع (١/ ٦٣).

(٢) أحمد (٢٤٠٧١)، الطبراني في الأوسط (٢٤٦٣).

(١٥)

البحث العلمي والدقة فيه
والاعتناء بدراسة الكتب الدقيقة

من مهام الأستاذ المعلم أن يربي تلاميذه على البحث العلمي، ويدربهم على الدقة فيه، وعلى التدقيق فيما يقرؤونه ويدرسونه من الكتب.

أسند البيهقي إلى الإمام الشافعي أنه قال: «من تعلم علماً فليدقق فيه، لئلا يضيع دقيق العلم»[١].

ومن الدقة في البحث ما يلي:

١ ـ الاهتمام بضبط الكلمات، ولاسيما الأعلام منها لأنها توقيفية لا يدل عليها سابق الكلام ولا لاحقه.

٢ ـ الاهتمام بمعرفة المعنى الدقيق للكلمات، وخاصة الواردة في الكتاب والسنة منها، بمراجعة الكتب المؤلفة فيها «كالمفردات» للراغب الأصفهاني، و«النهاية» لابن الأثير، فإنهما أهم ما ألف في شرح ألفاظ الكتاب والسنة.

٣ ـ الاهتمام بإتقان قراءة العبارة وفهمها وحلها وتحليلها، ثم بمعرفة ما ورد فيها مما يتعلق بالنحو والبلاغة وأصول الفقه والمنطق وبمصطلحاتها.

٤ ـ الاعتناء بفهم ما يقرأه ويدرسه بوجه دقيق، قال في تعليم المتعلم: «ينبغي

---

(١) مناقب الشافعي (٢/ ١٤٢).

أن يجتهد المتعلم في الفهم، فإذا تهاون ولم يفهم مرة أومرتين يعتاد ذلك، فلا يفهم الكلام اليسير، وقال فيه: «لا يكتب المتعلم شيئاً لا يفهمه، فإنه يورث كلال الطبع، ويذهب الفطنة».

٥ ـ الاعتناء بدراسة الكتب الدقيقة العميقة في المرحلة العالية، فإن دراستها تورث الملكة العلمية في دارسها بعناية، وتشحذ ذهنه، وتدربه على التحقيق والتدقيق في المسائل العلمية، وتساعده على فهم كتب السابقين واللاحقين، وتعينه على حل عباراتها المغلقة، وعلى الاطلاع على ما حوته من النكت والدقائق.

قال محمد بن أبي بكر الشهير بساجقلي زاده: «إن غرض الطالب أمران:

أحدهما: معرفة قواعد الفن، والآخر تشحيذ الذهن، وبعض الكتب يقرأ لمعرفة القواعد، فينبغي للطالب ألا يطلب عند قراءته الوجوه الدقيقة، لئلا يعوقه عن إتمامه، وعن أصول مسائله، وبعض الكتب يقرأ لتشحيذ الذهن، فينبغي للطالب ألا يطلب إتمامه ـ أي إتمام الكتاب الذي يقرأه لهذا الغرض ـ بالدرس، بل يطلب الغوص إلى أعماقه، وإعمال قوته الناظرة بدرك الوجوه الخفية، فإن قراءة كراس موجز منه إلى تمام سنة خير من قراءة جميعه إلى تمام السنة».

٦ ـ الاعتناء بفهم دقائق العلوم ولطائفها وغوامضها وأسرارها، ومعرفة فتاوى الأحوال الاستثنائية، والتفرقة بينها وبين فتاوى الأحوال العادية، وبهذا الفهم والمعرفة والتفرقة يتفاضل العلماء، وتتفاوت رتبهم، وأما معرفة القواعد العامة للعلوم ومعرفة الأحكام العامة، ومعرفة فتاوى الأحوال العادية فلا تتفاوت مراتب العلماء فيها إلا قليلاً.

قال الإمام سفيان الثوري: «العلم رخصة من عالم يدفع بها حرجاً عن الأمة، وأما الأحكام العامة فيعرفها كل الناس».

وقال الزمخشري في مقدمة الكشاف: «اعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطاً يسيرة، أو تقدم الصانعُ الصانعَ لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة، وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكّت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عُدَّ ألف بواحد، ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيه مباحث للفكر، ومن غوامض وأسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماة عن إدارك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم».

❊ ❊ ❊

(١٦)

تربية استعداد النقد في الطالب مع التربية على الأدب فيه وتدريبه على رعاية أدب الحوار وأدب الخلاف

من المهمات للمعلم المربي أن ينمي في أصحابه ـ في المرحلة العالية ـ المرحلة الجامعية فما فوقها ـ الاستعداد للنقد فيما يقرؤونه ويسمعونه، وهذا يحتاج مع التربية عليه إلى أمور أخرى مهمة:

وهي: المعلومات الصحيحة المنظمة المتماسكة المتعلقة بموضوع النقد، وهذا ما يعبر عنه بالأرضية الصلبة، ثم ذكاء ثاقب، ويقظة، ووثوق بالنفس، حتى يتيسر للطالب أو الأستاذ استخدام معلوماته ومحفوظاته في تقويم ما يقرأه أو يسمعه صحة وخطأً، قوة وضعفاً، وحتى يستعمل عقله وذكاءه ولا يتهم معلوماته أمام ما يعرض أمامه من أقوال وآراء.

وهذا مما يساعده على فهم النصوص من الكتاب والسنة، ومن كلام العلماء فهما صحيحاً، لا يجمد عند ظاهرها، ولا يؤولها تأويلاً يعطلها، فلا يجمد عند النص على حرفيته، ولا يلوي النص ليتمشى مع ما يحاول الاستدلال به عليه.

كما يساعده على تقليب وجوه النظر لفهم النص على تقدير صحته من الخطأ المطبعي، فإن لم يتيسر للطالب فهمه ينتقل إلى تقليب النظر على افتراض خطأ مطبعي فيه، وهذا أمر مهم في أيامنا هذه التي كثر فيها طباعة الكتب بدون عناية بها وبالتصحيح الدقيق لها قبل طبعها.

ثم إنه لا بد للعالم ـ مع تربية الطالب على الاستعداد للنقد ـ أن يربيه على الأدب مع العلماء السابقين آباء العلم وأجداده، وعلى استعمال الألفاظ اللطيفة والتعبيرات اللينة عندما ينتقد أحدهم، وأن يبتعد عن استعمال الألفاظ الفظة النابية.

وعلى طالب العلم أن يسير على هذا النهج الأدبي، ويراعي أدب الخلاف وأدب الحوار، حتى مع المعاصرين والمخالفين.

وهذا هو منهج القرآن الكريم، في محاجته لغير المسلمين وفي دعوتهم إلى الإيمان، حيث أرشد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يخاطبهم بقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤] حيث أورد الكلام على وجه الإبهام، ولم يخاطبهم بإنّا على هدىً وأنتم في ضلال مبين.

وكذلك أرشده إلى أن يخاطبهم بقوله: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، حيث إن المقابلة بـ﴿تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ يقتضي أن يكون التعبير: «ولا نسأل عما أجرمتم»، فعدل عن هذا التعبير الذي تقتضيه المقابلة إلى «ولا نسأل عما تعملون» رعاية لأدب الحوار والخلاف.

وحكى قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة بقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] مع أن مقصوده: «ما لكم لا تعبدون الذي فطركم» بقرينة قوله: «وإليه ترجعون».

عبر بهذا التعبير حتى لا يواجههم بأنهم لا يعبدون الذي فطرهم، ويُظْهِرَ لهم أنه يحب لهم ما يحب لنفسه، وحتى يكون التعبير أدعى إلى الاستجابة للدعوة وقبولها.

وفي هذه الآيات من اللطف واللين مع المخالف ما لا يخفى على أحد.

وهذا أسلوب عظيم من أساليب الحوار والدعوة إلى الله تعالى.

وهذا هو هدي النبي ﷺ في حواره مع الموافق والمخالف، وفي الدعوة إلى ما جاء به، وعلى هذا الأسلوب سار علماء الأمة سلفاً وخلفاً، إلا من شذ منهم.

❊ ❊ ❊

(١٧)

معايشة طالب العلم عصره وما يترتب عليه من الفوائد

من مهمات الشيخ والمعلم أن ينبه تلاميذه على معايشة عصرهم في عامة نواحيه، ويدربهم على ذلك، إذ لا بد لطالب العلم من معايشة عصره وواقع الحياة والمعاملات الجارية فيه.

ويقبح به أن يكون غافلاً عنها فاقداً لليقظة والوعي والمعاصرة، ولا مكان لطالب العلم المغفل في أيامنا هذه، فقد كان من هدي النبي ﷺ «أن يسأل الناس عما في الناس»، كما ورد في حديث ابن أبي هالة الطويل في الشمائل.

وقد جاء عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني أنه كان يذهب إلى الصباغين ويسأل عن معاملاتهم وما يدور بينهم، وهذا من كمال فقهه وورعه في دين الله تعالى.

قال الكوثري: «كان يريد التعرف على وجوه التعامل بين أرباب الصناعات، ومعرفة وجوه الفرق بين العرف القديم والعرف الجديد الطارئ، حتى يسلم كلامه من الخطأ في أي ناحية من نواحي الشرع»[1].

وفي هذه المعايشة للعصر فوائد جمة.

منها: أن تكون أقواله وفتاواه محكمة مسددة، لأنه يتكلم عن معرفة وخبرة للواقع والحياة.

---

(١) بلوغ الأماني (٤٤).

ومنها: أن لا يُتغفل من قبل بعض الناس ذوي النوايا السيئة الذين يحاولون تصيد الفتاوي لتسويغ ما هم عليه، أو ما ينوون القيام به مما هو غير صحيح ولا جائز في الشرع.

ومنها: أن تكون عنده خبرة مما يجري على أرض الواقع مما يحاك ضد الإسلام من المؤامرات والمذاهب والآراء الفاسدة المضادة للإسلام، ومن الآراء والمذاهب المنحرفة التي يُحاوَل إلصاقها بالإسلام، ومن الشبه والشكوك المثارة ضد أصول الإسلام أوفروعه، وذلك حتى يتيسر له التسلح بالعلم الصحيح الذي يستطيع عن طريقه القضاء على هذه المذاهب الفاسدة والآراء المنحرفة، ودفع هذه الشبه والشكوك وبيان فسادها.

❊ ❊ ❊

(١٨)

الالتزام بمنهج جماهير الأمة والحذر من شذوذات العلماء

من مهمات الأستاذ المربي أن يوجه أصحابه دائماً إلى الالتزام في العلم والعمل والفتوى بمنهج جماهير علماء الأمة في المسائل الكلية والجزئية، وأن يحذرهم من الآراء الشاذة المنقولة عن بعض أئمة السلف، وما يسمى بنوادر العلماء وشذوذاتهم وزلاتهم.

والأصل في هذا الباب قول النبي ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغةإذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

وأسند الآجرّي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ثلاث مضلات: أئمة مضلة، وجدال منافق بالقرآن، وزلة عالم»[٢].

وقد اشتهر عن الإمام عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: «لا يكون إماماً في العلم

---

(١) البخاري (٥٢).

(٢) تحريم النرد (١٧٠).

من أخذ بالشاذ من العلم، ولا يكون إماماً في العلم من روى عن كل أحد، ولا يكون إماماً في العلم من روى كل ما سمع»[١].

وروى البيهقي عن ابن سريج عن القاضي إسماعيل بن إسحاق إمام المالكية في العراق أنه قال: «دخلت على المعتضد فدفع إلي كتاباً فنظرت فيه، وكان قد جُمع له الرُّخَصُ من زلل العلماء، وما احتج به كل منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق، فقال المعتضد: لم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح السَّكَرَ ـ يريد النبيذ ـ لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة، لم يبح الغناء والسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه»، فأمر المعتضد فأُحرق ذلك الكتاب[٢].

قال الإمام تاج الدين السبكي عن المفتي الذي يسهل أمر الشرع ويرخص لبعض الأمراء ما لم يرخص لغيرهم: «هذا من علامات الاستهانة بدين الله تعالى.... ومَنْ هذا حاله يؤول والعياذ بالله تعالى ـ إلى الزندقة»[٣].

ونقل عن الكرابيسي تلميذ الإمام الشافعي وراوي مذهبه أنه قال ـ بعد أن حكى أقوالاً شاذة لبعض السلف ـ: «فإن قال قائل: هؤلاء من أهل العلم، قيل له: «إنما يهدم الإسلام زلة عالم، ولا يهدمه زلة ألف جاهل»[٤].

قال الإمام الشاطبي: «فصل: إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليداً له، وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع، ولذلك عدت زلة،

---

(١) رواه ابن عبد البر في الجامع (١٥٣٩) والخطيب أيضاً في الجامع (١٣٦٢).
(٢) السنن (١٠/ ٢١١).
(٣) معيد النعم ومبيد النقم (٨١).
(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٥).

وإلا فلو كانت معتداً بها لم تجعل لها هذه الرتبة، ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها، كما أنه لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتاً، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين.

ولا يصح اعتمادها أي ـ الزلة ـ خلافاً في المسائل الشرعية لأنها لم تصدر في الحقيقة عن اجتهاد، ولا هي من مسائل الاجتهاد، وإن حصل من صاحبها فهو لم يصادف فيها محلاً، فصارت في نسبتها إلى التشريع كأقوال غير المجتهدين، وإنما يعد في الخلاف الأقوال الصادرة عن أدلة معتبرة في الشريعة كانت مما يقوى أويضعف.

فإن قلت: فهل لغير المجتهد من المتفقهين في ذلك أي ـ في تمييز ما كان خلافاً معتبراً مما هوغير معتبرـ ضابط يعتمده أم لا؟

فالجواب: أن له ضابطاً تقريبياً وهو أن ما كان معدوداً في الأقوال غلطاً وزللاً قليل جداً في الشريعة، وغالب الأمر أن أصحابها منفردون بها، قلما يساعدهم عليها مجتهد آخر، فإذا انفرد صاحب قول عن عامة الأمة فليكن اعتقادك أن الحق مع السواد الأعظم من المجتهدين لا من المقلدين»[1].

❊ ❊ ❊

(١) الموافقات (٤/ ١٧٠-١٧٣).

(١٩)

إقرار أهل كل مذهب وبلد على ما هم عليه من العلم والعمل وعدم التعصب للمذاهب والمشارب

من مهمات المربي الحكيم أن يربي أصحابه على الحكمة في تعاملهم مع الناس، وأن يقرّوا أهل كل بلد ومذهب على ما هم عليه من العلم والعمل والفتاوي والأقضية، ما داموا على خير وعمل صالح يتفق مع توجه إسلامي معتبر عند جمهور علماء المسلمين، ويحذرهم عن أن يشوشوا عليهم، فيدْعوهم إلى غير ما هم عليه، ويحاولوا نقلهم إليه، وإن كان غير ما هم عليه أرجح مما هم عليه.

وهذا هو هدي السلف الصالح من إقرار الناس على ما هم عليه، وعدم تشويشهم وعدم التعصب لمذهب معين أو مشرب معين.

روى الدارمي في «سننه» في باب اختلاف الفقهاء أن حميد الطويل قال للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: لو جمعت الناس على شيء، فقال: ما يسرني أنهم لم يختلفوا. قال: ثم كتب إلى الآفاق ـ أو إلى الأمصار ـ ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم[١].

وروى ابن سعد عن شيخه الواقدي قال: «سمعت مالك بن أنس يقول: لما حج أبو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه، فحدثته وسألني فأجبته، فقال: إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها ـ يعني الموطأ ـ فتنسخ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها فلا يتعدوه إلى

(١) سنن الدارمي (١/ ١٥١).

غيره، ويَدَعُوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سَبَقَ إليهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل أهل بلد منهم لأنفسهم. فقال: «لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به»[١].

وفي رواية زبير بن بكار نقلها ابن عبد البر أن مالكاً قال لأبي جعفر: «قد رسخ في قلوب أهل كل بلد ما اعتقدوه وعملوا به، وردّ العامة عن مثل هذا عسير»[٢].

وفي كلام الإمام مالك هذا إقرار اختلاف الصحابة وعلماء الأمة من بعدهم على ما اختلفوا فيه، ورفض حمل الناس على مذهب واحد، واحترام آراء الأئمة الآخرين، وترك الناس على ما هم عليه ما داموا على وجه شرعي، وعدم تشويش واقعهم عليهم، وعدم التعصب للمذهب والرأي.

وروى الخطيب البغدادي عن الإمام سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه أنه قال: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه»[٣].

وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: «إني لأسمع الحديث فأكتبه وما من رأيي أن أعمل به ولا أن أحدث به، ولكن اتخذه عدة لبعض أصحابي، إن عمل به أقول: عمل بالحديث»[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٤٠).
(٢) الانتقاء (٨١).
(٣) آداب الفقيه والمتفقه (٧٦٠-٧٦١).
(٤) الكفاية (٤٠٢).

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى هذا الإنصاف، وهذا التسامح، وهذا النظر الواسع، وعض عليه بالنواجذ.

وفي ترجمة إسحاق بن راهويه قال أحمد: «لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً»[١].

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٧١).

المقصد الثالث

منهج تنشئة طالب العلم وتكوينه

وفيه أربعة مباحث:

١. ضرورة المنهج لتنشئة طالب العلم وأهدافه.

٢. سرد مواد المنهج المتكامل لكل المراحل.

٣. التخصص.

٤. المقررات للمراحل المختلفة.

(١)

ضرورة المنهج لتنشئة طالب العلم وأهدافه

النهج والمنهج والمنهاج لغة: الطريق البين الواضح المسلوك.

من المقرر أن النجاح في الأعمال المهمة، ولا سيما البعيدة المدى منها لا يتم إلا بوضع خطة صحيحة واضحة المعالم لهذه الأعمال، ولمراحلها، وهذا ما نقصده بالمنهج هنا، ومن أهم هذه الأعمال وأشقها وأبعدها مدًى صناعة طالب العلم، فلا تتم هذه الصناعة، ولا تنجح هذه العملية المهمة بدون وضع خطة صحيحة، وتقرير منهاج قوي متكامل لها، وقد اهتم علماء الإسلام في القديم والحديث بهذا الأمر أعظم اهتمام، وأولوه من العناية ما هو جدير بها.

ونحن في بحثنا هذا نحاول أن نأتي على ما قرروه في هذا المجال، مع إضافة ما فتح الله تعالى علينا إلى ما قرروه.

والمقصود من وضع هذا المنهج أن يسير المعتنون بتنشئة طلاب العلم عليه، وينجحوا في مهمتهم هذه، ويسدوا عن طريقها حاجة المجتمعات الإسلامية، ويقوموا بفرض الكفاية عنهم.

هذا هو هدف المنهج.

ومما يجدر تقديمه على بيان المنهج أن المجتمعات الإسلامية، بحاجة ماسة إلى ثلاثة أنواع من طلاب العلم، وثلاثة أصناف منها مترتبة:

١ ـ بحاجة إلى عدد وفير من طلاب العلم النبهاء، يقومون بوظيفة الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ الإسلام، ويقومون بوظيفة الوعظ والتذكير، ويقومون بوظيفة المنابر والمحاريب.

٢ ـ بحاجة إلى عدد كبير من العلماء المتمكنين في علمهم، يفتونهم بحكم الله تعالى في مهماتهم، ويبينون الأحكام التي يحتاجها العامة. وقال الفقهاء: يحرم على الإمام إخلاء مسافة العَدوى عن هذا العالِم، وهي المسافة التي يمكن الذهاب إليها من الغداة، والعودة منها إلى المنزل ليلاً.

٣ ـ بحاجة إلى طائفة أعلى في تمكنها واختصاصاتها العلمية، تقوم هذه الطائفة بإزالة الشبه، وإلزام المعاندين، وإرشاد المسترشدين، وتحل المسائل المغلقة، وتجيب على المسائل المشكلة، سواء كانت متعلقة بالعقيدة أو بالفقه أو بغيرهما، ويُسَمِّي الفقهاء صاحب هذا المنصب العلمي بـ«المنصوب للذَّب»، وهي تسمية دقيقة، وحكموا بحرمة إخلاء الإمام مسافة القصر عن مثل هذا العالم.

ثم إن هذا التصنيف الثلاثي ليس تقسيماً حقيقياً لا تتداخل فيه الأقسام والأصناف، بل هو تصنيف تقريبي تتداخل فيه الأقسام والمهمات والأعمال.

فعلى رعاية تنشئة هذه الأصناف الثلاثة من علماء الأمة يجب أن توضع المناهج الدراسية، وتؤسس المؤسسات التعليمية.

ثم إن هذا المؤتمر لم ينظَّم لوضع منهج تعليمي للمؤسسات التعليمية الرسمية التقليدية، لأن الغالب على أهداف هذه المؤسسات من جهة الدولة هو تخريج إداريين للدولة، وموظَّفين لها، ومن جهة الطلاب وأولياء أمورهم الحصولُ على الوظائف الرسمية والعملِ.

والهدف العلمي فيها ضعيف، وهذه المؤسسات لا تصلح لها المناهج التعليمية القوية الأصيلة، ولا يرغب فيها معظم طلابها، بل ينزعجون منها، ولا يستطيعون مواصلة الدراسة عليها، ولا الاستمرار فيها.

بل الهدف من هذا المؤتمر وضع منهج تعليمي تربوي لمؤسسات خاصة تهدف إلى تنشئة طلاب علم **أقلُّ أحوالهم أن يكونوا ملمين بالعلوم الإسلامية كلها، واقفين على أسسها وأصولها وخطوطها العريضة، يُصنع منهم علماء الأمة ومربوها وقادتها ومعلموها.**

وهذا الهدف أو هذا العمل يحتاج إلى منهج صحيح أصيل قوي متكامل، منهج يجمع بين القديم والحديث، ويدمج المعاصرة بالأصالة، ولا نقول: يجمع بين الأصالة والمعاصرة. وهذا هو ما نتكلم عنه.

ومما يجدر التنبيه عليه أني أعبر في هذا البحث بالمرحلة الابتدائية والمتوسطة والعالية، وأقصد بالمرحلة العالية مرحلةَ الجامعة فما بعدها، وبالمتوسطة المرحلة التي تعقبها مرحلةُ الجامعة، وبالابتدائية المرحلةَ التي تعقبها المتوسطةُ، وهي مراحل تقريبية وليست تحديدية.

❊ ❊ ❊

(٢)

سرد مواد المنهج المتكامل لكل المراحل

نسرد مواد المنهج المتعلقة بكل المراحل، ولا نفصلها إلى فصول ثلاثة على حسب المراحل الثلاثة، لأن تحديد المراحل أمر تقريبي، لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى فصلاً كاملاً، ولكنا نراعي الترتيب للمواد على حسب المراحل قدر ما يتيسر لنا، وإليك هذه المواد:

١ ـ انتخاب طلاب من أهل الذكاء والرغبة والجد والحيوية والنشاط.

٢ ـ انتخاب أساتذة متمكنين في مادتهم، عاملين لوجه الله، يجيدون طرق التعليم، وإلقاء الدروس، وعرض المعلومات المتعلقة بالدرس، ويجمعون بين الأصالة والمعاصرة، ويحسنون التعامل مع الطلاب، ويكونون أسوة حسنة بين طلابهم، وقدوة طيبة لمجتمعاتهم، وذلك لأن العلوم الإسلامية لا بد أن تقترن بالتربية، وحاجة التربية إلى الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، أكثر من حاجتها إلى التلقين والوعظ والتذكير.

٣ ـ ثم يأتي الدور للمنهج الصحيح الذي يُنَشَّأ عليه طالب العلم، وعالم المستقبل، والأصل في صحة هذا المنهج وجودتِه جودةُ المقررات الدراسية فيه، وترتيبها، والتدرج فيها على حسب مراحل الطالب بحيث يتناسب المقرر في كل مرحلة مع مستوى الطالب في تلك المرحلة.

هذا هو مجمل المنهج.

والأصل فيه هو الأستاذ؛ مستواه وحسن اختياره وانتقائه، لأنه هو الذي يُحسن انتخاب الطلاب، وهو الذي يُجيد تقرير المقررات وترتيبها، والتدرج في هذا الترتيب، وهو الذي ينشئ الطلاب ويعلمهم ويربيهم.

ومن أجل ذلك نرى ونشاهد أن مستوى المؤسسات التعليمية، في ارتفاع مستواها وانخفاضه، وفي نجاحها وإخفاقها يتوازى تماماً مع مستوى الأساتذة فيها، فإذا كنا قد نجحنا في اختيار الأساتذة وانتخابهم وانتقائهم نكون قد نجحنا في حل مشكلة التعليم، أو أزمة التعليم التي يعاني منها العالم الإسلامي، بنسبة نجاحنا في اختيار الأساتذة وانتخابهم وانتقائهم.

فإذًا لا بد أولا وقبل كل شيء من التركيز على الأساتذة والمعلمين، وتنشئة جيل رفيع المستوى العلمي والتربوي منهم.

٤ ـ هذه المدارس أو المعاهد أو المؤسسات التعليمية ينبغي أن تكون داخلية مجانية، يبيت فيها الطلاب، ويتناولون الطعام من مطبخها مجاناً، فلا بد أن تهيأ لها العمارات المناسبة لنشاطها.

٥ ـ وينبغي أن تنظم فيها أوقاتهم للحفظ، والمطالعة، وتكرار الدروس وتكرار المحفوظات، والمذاكرة للدروس مع زملاء الدراسة، والاستراحة، والطعام، والمنام، ويخصص فيها ما بعد صلاة الصبح للأذكار والمأثورات من أذكار الصباح.

وأن يتابَع هذا النظام من قبل مشرفين عليه، وينبغي أن يكون المشرفون من أهل العلم، حتى يراجعهم الطلاب فيما أشكل عليهم أو اختلفوا فيه، أو يُنتخب المشرفون من الطلاب ممن يجيدون الإشراف والإدارة.

وبمبيت الطلاب في سكن المدرسة وتنظيم أوقاتهم والحفاظ على هذا التنظيم

بصرف أوقاتهم في الحفظ، والمطالعة، والمذاكرة، والتكرار للدروس والمحفوظات تتمكن العلوم عند الطلاب، وترسخ في عقولهم، ويتيسر لهم الاختصار من مدة الدراسة.

٦ـ التعليم الإسلامي من أجل كثرة علومه ومواده ومتمماته، ومن أجل سعة معظم هذه العلوم ودقتها وعمقها لا يُكتفى فيه بالوقت القصير، ولا بالوقت المتوسط، بل لا بد فيه من زمان طويل. والتقصيرُ من مدة الدراسة تقصير من قامة العلم، وحائل دون تمدد جذوره وتعمقها.

هذا هو الأصل والعادة الغالبة التي قاربت الاطراد في تحصيل العلم.

نعم هناك أفراد من أفذاذ العصور ذكاء، ونوابغ الدهور حفظاً اكتفوا في تحصيل العلوم وبلوغ مرتبة الإمامة فيها بوقت قصير بالنسبة إلى مدة العادة الغالبة، وهؤلاء من نوادر العصور وشواذّها.

٧ـ لا بد من تكثير الأساتذة ذوي الاختصاصات المختلفة في هذه المدارس، كما لا بد من تعدد أصحاب الاختصاص الواحد منهم فيها، حتى يغني هذا عما كان السلف يعتنون به ويركزون عليه، ويعدونه أساساً في تحصيل العلم من الرحلة في طلب العلم، وتكثير الشيوخ.

٨ـ الأولى بالدروس العلمية الإسلامية ألا تكون على نظام الصفوف الدراسية التي تحتوي على أفراد كثيرة، كما هو الحال في المدارس والجامعات الرسمية، بل تكون على نظام الحلقات المكونة من أفراد قليلة، حتى يستطيع الأستاذ مواجهة كل واحد من الطلاب ومخاطبته إياه، واختبار مستواه واختبار فهمه للدرس في أثناء الدرس، وحتى يتيسر لكل واحد من أفراد الحلقة أن يوجه الاستفسارات والأسئلة لأستاذه، وأن يناقشه في بعض مواد درسه، والأفضل أن تكون هذه الحلقات في المساجد.

٩ ـ لا بد أن يقرر في المرحلة الابتدائية دراسة المختصرات المشتملة على أمهات مسائل العلوم المحتوية للخطوط العريضة فيها، مع العناية بحفظها وإتقانها فهما.

١٠ ـ ولا بد من مزيد العناية بالمرحلة الابتدائية لأنها القاعدة والأساس للمراحل التالية، فإذا كان الأساس قوياً صلباً يكون البناء عليه محكماً سامقاً، وإذا كان الأساس رخواً هشاً يكون البناء عليه ضعيفاً منخفضاً، عرضة للتشقق والانهيار.

وهذا هو الأساس فيما يعاني منه العالم الإسلامي من أزمة التعليم، وضعف مستوى الدارسين في مدارسه ومعاهده، وضعف المتخرجين منها، وضعفُ مستوى معظم الأساتذة والدكاترة فيها، هو رخاوة القاعدة العلمية وضعف الأساس وهشاشته.

١١ ـ أن يُعتنى في مرحلتي الابتدائية والمتوسطة بجمع المعلومات، وترسيخها في أذهان الطلاب، أكثر من العناية بتحقيق المسائل والتعمق فيها، وأن يُربط بين هذه المعلومات وحياة الطالب قدر الإمكان.

١٢ ـ وأن يركز فيهما على الكتب الأصيلة القديمة الابتدائية والمتوسطة المستوى أكثر من التركيز على الحديثة، والمذكرات التي يكتبها الأساتذة.

١٣ ـ ينبغي في المرحلة المتوسطة العناية بحفظ المتون المتوسطة المستوى من العلوم التي يدرسها الطالب كالألفيات.

١٤ ـ الاهتمام بعد حفظ المتون بتكرارها حتى لا ينساها الطالب، وتُخصَّص قاعات لحفظ المتون وتكرارها.

١٥ ـ الاعتناء بالحفظ مع الاهتمام بتنمية الملكة النقدية.

١٦ ـ الاهتمام بمذاكرة الطلاب للدروس فيما بينهم وتخصيص قاعات لذلك.

١٧ ـ أن يُكتفى من الدروس بقدر ما يتحمله استعداد الطالب ويتقنه.

١٨ ـ الاعتماد على دراسة الكتب القديمة، واتخاذها أساساً للدراسة لا سيما في المرحلة ما بعد المتوسطة.

١٩ ـ ينبغي أن يركز في المرحلة المتوسطة والعالية على ربط المعلومات النظرية بدروس تطبيقية، وأن يربط بين التعليم الديني وقضايا العصر، حتى يعيش الطالب القضايا التي يدرسها، ويتدرب على إيجاد حلول لمشكلاتها.

٢٠ ـ الاهتمام بالمحادثة باللغة العربية وبالإنشاء بها.

٢١ ـ الاهتمام بتعلم اللغات الأجنبية.

٢٢ ـ أن يُعتنى بأن يكون الطالب ملماً بما تحتاج إليه العلوم الإسلامية من العلوم البشرية والاجتماعية، والكونية والرياضية.

٢٣ ـ تعلية همة الطالب، والتركيز على حفاظه على الوقت وعلى استغلاله.

٢٤ ـ تعزيز الوازع العلمي، والتدريب على البحث فيما بعد المرحلة الابتدائية.

٢٥ ـ كتابة الدروس في المرحلة الابتدائية، وتلخيص الدروس اليومية كتابة في المرحلة المتوسطة والعالية.

٢٦ ـ أن يُعتنى بتكوين شخصية الطالب، وتنمية مواهبه وقدراته الفكرية، وبمناقشة القضايا التي يواجهها الطالب، أو يعيشها، أو يعاني منها.

٢٧ ـ الإجابة على القضايا والأسئلة التي تحير الطالب وتقلقه.

٢٨ ـ إتاحة الفرصة للطالب لمناقشة هذه القضايا وعرض هذه الأسئلة ومناقشة الأجوبة عليها، حتى تتكون شخصيته العلمية، وتتنمى قدراته الفكرية.

٢٩ـ كتابة بحث قصير أو متوسط في موضوع علمي يتناسب مع مستوى المرحلة في كل من مرحلتي المتوسطة والعالية تحت إشراف أستاذ خبير بالموضوع وبأساليب التأليف.

٣٠ـ التركيز على تحقيق المسائل والتدقيق فيها، وتدريب الطالب على هذا الأمر في المرحلة ما بعد المتوسطة، ومن أهم وسائله دراسة الكتب المعمقة بفهم وعناية.

٣١ـ ابتعاث الطلاب إلى البلدان الأخرى لمدة سنة أو سنتين لتطوير الخبرات والتجارب العلمية والثقافية، وتعلم اللغات وتطوير الخبرات اللغوية، إذا اقتضت الحاجة ذلك.

٣٢ـ الاعتناء بدراسة الكتب الدقيقة العميقة في المرحلة العليا مرحلة الجامعة فما فوقها، وإدراج مجموعة منها في هذه المرحلة ضمن المناهج التعليمية، فإن دراستها تورث الملكة العلمية في دارسها باهتمام وعناية، وتشحذ ذهنه، وتدربه على التحقيق والتدقيق في المسائل العلمية، وتساعده على فهم كتب السابقين واللاحقين، وتعينه على حل عباراتها المغلقة، وعلى الاطلاع على ما حوته من النكت والدقائق، كما تساعده على فهم دقائق العلوم ولطائفها وغوامضها وأسرارها، التي بمعرفتها يتفاضل العلماء، وتتفاوت رتبهم، وتتباين مستوياتهم العلمية.

قال ساجقلي زاده المرعشي: «تشحيذ الخاطر مستحب بل فرض كفاية ـ والله أعلم ـ لأن الخاطر آلة للدين، فيستحب أو يفرض كفاية قراءة بعض النسخ ـ الكتب ـ الدقيقة من العلوم الشرعية أو الآلية على وجه يحصُل به تشحيذ الخاطر على عالم مدقق يخوض في الدقائق، وهو أعز من الكبريت الأحمر»[1].

---

(١) ترتيب العلوم (١١٤).

٣٣ـ تعزيز النزعة النقدية عند الطالب في هذه المرحلة، وتحصيل الثقة بالنفس عنده، والاعتدادِ بما تجمع عنده من القواعد والمعلومات، وتدريبه على الحوار والنقاش والنقد.

ومن أهم وسائله بعد التأهل له، وتكوينِ الشيخ عقليةَ النقد عند الطالب وتوريثِها إياه، دراسةُ الكتب القديمة الجدلية النقدية، ومن أهم الكتب التي التقيت بها في هذا المجال كتاب «شرح العمدة» للإمام ابن دقيق العيد، كما أن من وسائل التدريب والتدرب على النقد دراسة الكتب الضعيفة المستوى التي فيها مجال للنقد كثيراً، مع نقد هذه المواد أو النصوص من عالِم ناقد بصير بالنقد خبير بطرقه، فبدراسة هذين النوعين من الكتب يتدرب الطالب على النقد، وتتكون عنده الملكة النقدية، وتقوى فيه رويداً رويداً وشيئاً فشيئاً.

ثم إن النقد لا يجوز إلا للمتأهل له ولا بد مع التأهل له من الحذر الشديد فيه، فإنه مزلة مدحضة، فكم من ناقد تورط في أخطاء جسيمة، وسقط في أغلاط عظيمة، ولا بد فيه بعد ذلك من الإنصاف ورعاية الأدب واللطف في التعبيرات التي تستعمل في النقد.

وقد ابتلي المسلمون في هذا العصر بناس ليسوا من أهل العلم، بل هم من أنصاف المتعلمين، أو من أرباع المتعلمين، أو من المثقفين ثقافة إسلامية أو ثقافة عامة يتعدون أطوارهم، ويتطاولون على بعض كبار العلماء وأئمة الدين، وينتقدونهم جهلاً وسفهاً، بل بلغ الحد إلى كثير منهم إلى التطاول على الأحاديث المجمع على صحتها، ونقدها، وردها بعقولهم السقيمة وآرائهم العقيمة، والجنون فنون.

وهذه الجريمة الشنعاء هي نتيجة الجهلِ المركب، والجاهل ـ كما يقولون ـ

جسور، والإعجابِ بالنفس الذي هو أصل الأمراض القلبية، وأساس العلل النفسية، كما أنها نتيجة عدم مجالسة العلماء والأخذ عنهم. و«رحم الله امرأ عرف قدره فلم يتعد طوره».

وفي المقابل يوجد في الساحة العلمية ناس من أفاضل العلماء وكبارهم، وقد يكونون موسوعيين في شتى العلوم الإسلامية، مؤهلين للنقد العلمي ومستعدون للإبداع علمياً، لكنهم يفتقدون الاستعداد النفسي له، ولا يرون لأنفسهم حق النقد والإبداع، لاستحكام التقليد للسابقين فيهم، من أجل عدم توريث شيوخهم لهم هذا الأمر، وعدم تدربهم عليه، ولنشأتهم في بيئة وجو استحكم فيه التقليد، واعتقادهم أنه ما ترك الأول للآخر.

مع أن العلوم الإسلامية لم تنشأ ولم تتطور ولم تكتمل إلا نتيجةً لحرية التفكير وللإبداع والنقد. وعلى هذا المنهج جرى السلف والخلف، وكانوا يرون ذلك من واجبهم الديني ومن حق الإسلام وحق العلم عليهم. فالإمام أحمد تلميذ للإمام الشافعي، وهو تلميذ للإمام مالك وللإمام محمد بن الحسن الشيباني، وهو وأبو يوسف تلميذان للإمام أبي حنيفة، وكل واحد منهم قد خالف شيخه في أصول الاستنباط وفي فروع الأحكام، مع إجلالهم لشيوخهم وتأدبهم معهم، وليس ذلك إلا نتيجة لحرية تفكيرهم، واعتقادهم وجوبَ الإبداع، ورؤيتِهم حق النقد للسابقين لأنفسهم، ولولا هذه النظرات الحرة لما تكونت العلوم الإسلامية، ولا نشأت المذاهب المختلفة ضمن الشريعة الإسلامية.

٣٤ـ الاعتناء بتربية الطلاب تربية إسلامية خالصة، والاهتمام بتثقيفهم ثقافة إسلامية وثقافة عامة تتناسب مع مستوياتهم ومراحلهم.

٣٥ـ التدريب على الإنصاف، ورعاية آداب الحوار، وآداب الخلاف، والنظرة التسامحية.

٣٦ ـ أن يربى الطالب في المرحلة الابتدائية على الميل إلى الدعوة الإسلامية، ويغرس فيه مبادئها وأسسها.

٣٧ ـ إثارة النخوة الإسلامية في نفوس الطلاب، وتمكينها في قلوبهم.

٣٨ ـ أن يكون الطالب ملماً بما يحاك ضد الإسلام من المؤامرات، ويبين له طرق الوقاية منها ومن أثرها، وسبل الحيلولة دون تأثر المسلمين بها.

٣٩ ـ أن يكون ملماً بما يوجد على الساحة الإسلامية والعالمية من المذاهب الضالة، والأفكار المنحرفة، والاتجاهات الهدامة، ويُبين للطالب وجه بطلانها، وفسادها، ومخالفتها للعقل وللعلم وللمصلحة الإنسانية.

٤٠ ـ أن يغرس فيه الوعي الديني، والميل إلى العمل بما تعلمه من الأحكام الإسلامية.

٤١ ـ غرس الاهتمام بالدعوة الإسلامية في نفوس الطلاب، وتدريبهم عليها وعلى أساليبها في المرحلة المتوسطة والعالية.

٤٢ ـ الدعم المالي للأساتذة والطلاب وتخصيص المنح الدراسية لهم.

٤٣ ـ حرية التعليم وعدم تدخل السُّلطات فيه، فإن مؤسسة التعليم كمؤسسة القضاء لا بد أن تكون حرة، وتدخل الساسة فيها يفسدها، فهي التي يجب أن تتحكم في الساسة لا العكس. والله تعالى أعلم.

٤٤ ـ ومن توابع المنهج ووسائل نشره انتخاب طلاب نجباء بعد انتهائهم من المنهج، وإرسالهم إلى بلدان أخرى كي ينشئوا مدارس على هذا المنهج، ويسدوا الفراغ العلمي في تلك البلدان.

* * *

(٣)

التخصص

وبعد الانتهاء من المرحلة العالية، ودراسة الطالب للعلوم الإسلامية كلها من مصادرها الأصلية، وحصول نوع من الملكة فيها عند الطالب، يأتي الدور للتخصص، ومن أجل أن حديثنا عن تنشئة العلماء، لا عن الدراسات الرسمية والتقليدية، فإننا لا نقصد بالتخصص هنا الدراسات العليا التقليدية؛ عمل الماجستير وعمل الدكتوراه في مسائل جزئية أو في قسم من أحد العلوم الإسلامية.

وإنما أقصد التخصص في أحد العلوم الإسلامية بكماله، وأركز هاهنا على ثلاثة علوم: الفقه، والحديث، والكلام وما يتبعه من الملل والنحل والمذاهب والفرق.

أما الفقه فهو البحر العميق الغور، البعيد الأرجاء، وهو أوسع العلوم الإسلامية، وأشدها حاجة إليه، لأنه متعلق بأفعال المكلف كلها.

وأما الحديث فهو العلم الذي قيل فيه: «لا ينشأ الحافظ له إلا في كل أربعين سنة». بل لم ينشأ في العصور المتأخرة حافظ للحديث منذ أكثر من أربع مئة سنة، وهو متعلق بأصول الدين وفروعه، كما أنه بيان للكتاب المجيد.

وأما الكلام فهو من أدق العلوم وأعمقها، وإذا ضم إليه ما يتعلق به من الملل والنحل والمذاهب والفرق القديمة منها والحديثة، إسلامية كانت أو غير إسلامية، فهو من أوسع العلوم وأهمها. وهو متعلق بتصحيح عقائد المسلمين، ودفع الشبه والشكوك عنها، والرد على العقائد الباطلة، والمذاهب والأفكار والآراء الزائغة، وبذلك يتم الحفاظ على العقائد الإسلامية. فمن أجل ذلك لا بد من التركيز عليه

والتخصص فيه، ولا سيما في هذا العصر الذي انتشرت فيه هذه العقائد والمذاهب والأفكار، وكثر الدعاة إليها والمنخدعون بها.

فبعد الانتهاء من المرحلة العالية، ينبغي أن يُنتخب مجموعات من المتخرجين منها يكونون نخبة النخبة، تدرَّب كل مجموعة منها على التخصص في علم من هذه العلوم برعاية وإشراف متخصصين في تلك العلوم.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن علم الكلام يحتاج إلى التجديد من عدة نواح:

١ ـ تخليصه من التعقيدات الفلسفية، والتوغل في الجدل العقيم بل الضار بالعقيدة.

٢ ـ تخليصه من التعصب لمذهب من مذاهب أهل السنة الثلاثة: الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، فإن عقيدة أهل السنة هي ما أجمع عليه هذه المذاهب الثلاثة، وأما ما اختلفوا فيها من المسائل فليست من العقيدة، بل هي مذاهب وآراء اجتهادية لأصحابها ليست ملزمة لأحد من المسلمين، وكثير منها مسائل فلسفية، وهي ما يسمى بدقيق الكلام منها.

٣ ـ التركيز فيه على الرد على الفلسفات والمذاهب الفكرية الحديثة، والعقائد والآراء الباطلة الموجودة على الساحة الإسلامية والعالمية، والتخفيف من الرد على القديمة منها، ولا سيما التي مات أصحابها.

٤ ـ تدعيم العقائد الإسلامية بالدلائل القرآنية القريبة إلى الأفهام التي تورث ثلج الصدور وراحة النفوس، وبما هو قريب منها، وبالدلائل التي أثبتتها العلوم الحديثة، وبما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، بدلاً من الدلائل الفلسفية الغامضة الشديدة الخفاء الوعرة المسلك التي لا يتم الاستدلال بها إلا بعد رتب كثيرة يطول فيها الخلاف، ويدق عليها الكلام، ولا تصلح للعامة، بل لا تصلح إلا لأخصِّ الخاصَّة.

(٤)

المقررات للمراحل المختلفة

ما قررناه آنفاً هو المنهج المتكامل للمراحل المختلفة للتعلم والتعليم.

وأما الكتب المناسبة لكل مرحلة وتقريرها وترتيبها فهذا أمر اجتهادي يقوم به أفذاذ العلماء من خبراء التعليم والتربية، الخبيرون بالكتب الإسلامية في مختلف العلوم ومختلف المستويات، ولا يجوز أن يتدخل في مثل هذا الأمر كل من هو أستاذ أو مدير لمعهد من المعاهد الإسلامية، فكم من مدرسة في العالم الإسلامي استمرت عشرات السنين أو مئاتها عقمت عن إنتاج عالم رفيع المستوى من أجل ضعف المقررات فيها، وسوء ترتيبها، وقصر مدة الدراسة فيها، وكم من مدرسة تم مسخها باسم الإصلاح والتجديد فيها.

نعم في الساحة الإسلامية مدارس كثيرة تُدرَّس فيها مناهج وضعت قبل مئات السنين، ولا زالت هذه المدارس تدرِّس هذه المناهج بحذافيرها بدون إجراء تغيير عليها، وهذه المناهج هي مناهج أصيلة قوية كانت مناسبة للفترة التي قررت فيها، ولكنها لا تتواءم مع حاجات العصر المتجددة، فمن واجب العلماء إجراء الإصلاح والتعديل عليها بالحذف والإضافة بحيث تكون المقررات أقرب إلى الوفاء بحاجة العصر، وأقرب إلى أذواق أهله، مع المحافظة على أصالتها وقوتها.

والمطلوب في المنهج والأصل فيه أن يكون مبنياً على التدرج المناسب لمراحل الدراسة، وعلى طول مدة الدراسة، وعلى الجمع لمختلف العلوم الإسلامية

مع الأصالة والقوة في المقررات، وبعد تحقق هذه الأمور التي هي روح المنهج لا يضر اختلاف الكتب المقررة من مدرسة لأخرى، ومن قطر لآخر.

وهذا هو واقع المدارس في العالم الإسلامي قد تتفق فيها المقررات وقد تختلف.

فالمنهج لا بد أن يكون ثابتاً لا تختلف فيه المدارس، وأما المقررات في مراحله فقابلة للاختلاف، كما أنها قابلة للتغيير والحذف والإضافة.

ونحن في مدرستنا «مدرسة الفلاح» الإسلامية الأهلية في مدينة قونيا في قلب تركيا أصل المنهج فيها منهج قديم أصيل قوي، استمر هذا المنهج في المعاهد الإسلامية في شرق تركيا منذ مئات السنين، وقد أجرينا على هذا المنهج التجديد والتعديل، وجعلناه بحيث يكون أقرب إلى الوفاء بحاجة العصر.

وهذه قائمة الكتب المقررة في هذا المنهج، نوردها هنا كمثال للمقررات الدراسية، بدون دعوى الكمال فيه، وبدون الدعوة إلى الالتزام به، نورد هذه القائمة عسى أن ينتفع بها ويستفيد منها الذين يحاولون وضع المقررات والمناهج لمختلف المراحل الدراسية:

١ـ «**الأربعون النووية**»: للإمام النووي.

٢ـ «**قصص النبيين للأطفال**»: لأبي الحسن الندوي.

٣ـ «**مختصر القدوري**»: لأحمد بن محمد البغدادي الحنفي القدوري. (للأحناف).

٤ـ «**غاية الاختصار**»: للقاضي أبي شجاع. (للطلاب الشافعية).

٥ـ متن «**بدأ الأمالي**»: في العقيدة ـ أو «**جوهرة التوحيد**»: للّقاني.

٦ـ «**نور العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون**»: لابن سيّد الناس.

٧ـ «**القراءة الراشدة**»: لأبي الحسن الندوي.

٨ـ «**الجواهر الكلامية**»: للشيخ طاهر الجزائري.

٩ـ «**متن الأمثلة**»: في الصرف.

١٠ـ «**متن البناء**»: في الصرف.

١١ـ «**متن المقصود**» أو «**متن العزي**»: للزنجاني في الصرف.

١٢ـ «**العوامل المائة**»: لعبد القاهر الجرجاني ـ أو «**العوامل المائة**»: للبركوي.

١٣ـ «**الظروف**»: وهو كتاب جيد يحتوي على أهم أحكام الظروف لملا يونس الأرقطيني من علماء الأكراد كتبه باللغة الكردية، وعربه بعض العلماء.

١٤ـ «**التركيب**»: لملا يونس الأرقطيني، وكتبه باللغة الكردية أيضاً، وعربه بعض العلماء.

١٥ـ «**متن الآجرومية**»: للصنهاجي وشرحها «التحفة السنية»: لمحمد محيي الدين عبد الحميد.

١٦ـ «**متممة الآجرومية**»: للحطاب الرعيني.

١٧ـ «**شرح قطر الندى وبل الصدى**»: لابن هشام.

١٨ـ «**شرح العزي في الصرف**»: للتفتازاني.

١٩ـ «**شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**»: لابن هشام.

٢٠ـ «**سيرة خاتم النبيين**»: لأبي الحسن الندوي.

٢١ـ «**قواعد الإعراب**»: لابن هشام.

٢٢ـ «**الكافية**» إلى المجرورات: لملا خليل الإسعردي.

٢٣ـ «**البهجة المرضية في شرح الألفية**»: للإمام السيوطي،وعليه حاشيتنا القيمة المسماة بـ«التحقيقات الوفية لما في البهجة المرضية من النكات والرموز الخفية».

٢٤ـ «**الفوائد الضيائية**»: شرح ملا جامي على «كافية ابن الحاجب».

وهنا ينتهي علم الصرف والنحو.

٢٥ـ «**تهذيب سيرة ابن هشام**» لعبد السلام هارون ـ **أو** «**نور اليقين**»: للخضري.

٢٦ـ «**ملتقى الأبحر**»: للحلبي، و«**الهداية**»: للمرغيناني، في الفقه الحنفي.

٢٧ـ «**مقدمة الحضرمي**»: لبافضل الحضرمي، في الفقه الشافعي.

٢٨ـ «**عمدة السالك وعدة الناسك**» لابن النقيب في الفقه الشافعي.

٢٩ـ «**منهاج الطالبين**»: للنووي، في الفقه الشافعي.

٣٠ـ «**الفوز الكبير في أصول التفسير**»: لشاه ولي الله الدهلوي.

٣١ـ «**مختصر الإتقان في علوم القرآن**».

٣٢ـ **قطعة من**: «**تفسير الجلالين**»: ومن: «**تفسير البيضاوي**» أو من: «**تفسير النسفي**».

٣٣ـ «**متن البيقونية**» مع «**شرحها**»: لعبد الله سراج الدين.

٣٤ـ «**التقريب**»: للنووي، في أصول الحديث.

٣٥ـ «**نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر**»: لابن حجر العسقلاني، مع حاشيتنا عليها «**النكت الغرر**».

٣٦ـ «**ثلاث رسائل علمية**»: لمحمد صالح الغرسي.

٣٧ـ «**السنة النبوية حجية وتدوينا**»: لمحمد صالح الغرسي.

٣٨ـ «**تحفة المريد على جوهرة التوحيد**»: للباجوري مع حاشيتنا المطولة عليه: «التحرير الحميد لمسائل علم التوحيد».

٣٩ـ «الخريدة البهية» في علم العقائد، وشرحها: كلاهما للشيخ أحمد الدردير.

٤٠ـ «منهج الأشاعرة في العقيدة بين الحقائق والأوهام»: لمحمد صالح الغرسي.

٤١ـ «عقيدة الإمام الأشعري أين هي من عقائد السلف»: لمحمد صالح الغرسي.

٤٢ـ «رياض الصالحين»: للنووي.

٤٣ـ «علم الميراث»: وقد كتبنا فيه مختصراً جامعاً وهو الذي نُدرِّسه للطلاب.

٤٤ـ «إيساغوجي»: للأبهري، في علم المنطق.

٤٥ـ «شرح إيساغوجي»: لإسماعيل الكلنبوي، مع حاشيتنا عليه.

٤٦ـ «اللمع في علم الوضع»: لملا أبي بكر رستم الصوري.

٤٧ـ «شرح السمرقندي على رسالة الوضع»: للقاضي عضد الدين الإيجي، مع حاشيتنا عليه.

٤٨ـ «متن الفريدة»: في علم البيان، لأبي الليث لسمرقندي.

٤٩ـ «شرح العصام على الفريدة»: في علم البيان، مع حاشيتنا القيمة عليه.

٥٠ـ «شرح الخبية في علم المناظرة»: وهي منظومة قيمة لملا خليل الإسعردي، والشرح لمحمد صالح الغرسي.

٥١ـ «الإجابة الباهرة على أسئلة تتعلق بمن يسب الصحابة الطاهرة»: لمحمد صالح الغرسي.

٥٢ـ «فصل الخطاب في مواقف الأصحاب»: لمحمد صالح الغرسي.

٥٣ـ «قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين»: للحطاب، ولنا عليه تعليقات، وقد قدمنا له بمقدمة مطولة.

٥٤ـ «**مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**»: للتلمساني، ولنا عليه تعليقات تحل عباراته المغلقة.

٥٥ـ «**أصول الفقه**»: لعبد الوهاب خلاف.

٥٦ـ «**الوافي بما في الصحيحين**»: لصالح أحمد الشامي.

٥٧ـ «**إحكام الأحكام**»: لابن دقيق العيد، شرح «عمدة الأحكام»: للمقدسي، وقد كتبنا عليه تعليقات تفك عباراته الغامضة.

٥٨ـ «**مختصر المعاني**»: للتفتازاني، مع حاشيتنا عليه.

٥٩ـ «**المسامرة**»: لابن أبي شريف، وهي شرح «**المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة**»: لابن الهمام، مع حاشيتنا المهمة عليه: «**بدر التمام في تحقيق مهمات قضايا عقائد الإسلام**».

٦٠ـ «**شرح المحقق المحلي على جمع الجوامع**» في أصول الفقه: لتاج الدين السبكي.

* * *

الخاتمة

وفيها ثلاثة مباحث:

١. شرائط العالم الرباني المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه.

٢. آداب التذكير والوعظ.

٣. وصايا مهمة لطالب الحق.

(١)

شرائط العالم الرباني
المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

العالم الرباني الذي يكون وارث الأنبياء والمرسلين هو من يحافظ على أمور:

منها: أن يدرس العلم من التفسير، والحديث، والفقه، والسلوك، والعقائد، والنحو، والصرف، وليس له أن يشتغل بالكلام، والأصول، والمنطق؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

ومنها: أن يتخولهم بالموعظة قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، وليجتنب القصص، فقد روينا في الأصول: «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه من بعده كانوا يتخولون بالموعظة»، وروينا في «سنن ابن ماجه» وغيره: «أن القصص لم تكن في زمان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا في زمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[1]، وروينا: «أن الصحابة كانوا يخرجون القصاص من المساجد»، فعلمنا أن القصص غير الموعظة وأنه مذموم، وأنها محمودة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٤٤)، وروى عبد الرزاق في المصنف (٢٦١٩٠) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: «لم يقص زمان أبي بكر وعمر، إنما كان القصص زمان الفتنة».

فالقصص هو أن يذكر الحكايات العجيبة النادرة، ويبالغ في فضائل الأعمال أو غيرها بما ليس بحق، ولا يقصد في ذلك تدريجُ تلقينهم السنة وتمرينهم بها، بل التشدق والإعجاب والتميز عن الناس بالفصاحة وحسن إيراد الحكايات والأمثال، وبالجملة فالفرق بينهما أمر مهم.

ومنها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوضوء والصلاة بأن يرى أحداً لا يستوعب الغسل، فينادي: «ويل للأعقاب من النار»[١] ولا يتم الطمأنينة فيقول: «صل فإنك لم تصل»[٢] وفي اللباس والكلام وغير ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأدب فيهما الرفق واللين، وإنما العنف والشدة شأن الأمراء والملوك، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومنها: مواسات الفقراء وطالب العلم بقدر الإمكان، فإن لم يقدر وكان له إخوان موافقون حرضهم وحثهم على المواساة.

فإذا وجدت هذه الصفات مجتمعة في شخص واحد فلا تشكن أنه وارث الأنبياء والمرسلين، وأنه الذي يدعى في الملكوت عظيماً، وأنه الذي يدعو له خلق الله حتى الحيتان في جوف الماء كما ورد في الحديث[٣]، فلازمه لا يفوتنك، فإنه الكبريت الأحمر. والله أعلم.

واعلم أن كل من انتصب منصب الهداية والدعوة إلى الله متى ما أخل في شيء من هذه الأمور فإن فيه ثلمة حتى يسدها.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٢).

(٢) هذا جزء من حديث رواه الشيخان. البخاري: (٧٦٠)، ومسلم: (٣٩٧) وهو المشهور بحديث المسيء صلاته.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢)

آداب التذكير والوعظ

قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقال لكليمه موسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، فالتذكير ركن عظيم.

ولنتكلم في صفة المذكر، وكيفية التذكير، والغاية التي يلمحها المذكر، ومن أي علم استمداده، وماذا أركانه، وما آداب المستمعين، وما الآفات التي تعتري في وعاظ زماننا. ومن الله الاستعانة.

فأما المذكر: فلا بد أن يكون مكلفاً عدلاً كما اشترط في راوي الحديث والشاهد، محدثاً مفسراً، عالماً بجملة كافية من أخبار السلف الصالحين وسيرتهم، ونعني بالمحدث المشتغل بكتب الحديث بأن يكون قرأ لفظها، وفهم معناها، وعرف صحتها وسقمها، ولو بإخبار حافظ أو استنباط فقيه، وكذلك بالمفسر المشتغل بشرح غريب كتاب الله، وتوجيه مشكله، وبما روي عن السلف في تفسيره، ويستحب مع ذلك أن يكون فصيحاً، لا يتكلم مع الناس إلا قدر فهمهم، وأن يكون لطيفاً ذا وجه ومروءة.

وأما كيفية التذكير أن لا يُذَكِّرَ إلا غباً، ولا يتكلم وفيهم ملال، بل إذا عرف فيهم الرغبة، ويقطع عنهم وفيهم رغبة.

وأن يجلس في مكان طاهر كالمسجد، وأن يبدأ الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويختم بهما، ويدعو للمؤمنين عموماً وللحاضرين خصوصاً.

ولا يخص في الترغيب أو الترهيب، بل يشوب كلامه من هذا ومن ذلك كما هو سنة الله من إرداف الوعد بالوعيد، والبشارة بالإنذار.

وأن يكون ميسراً لا معسراً، ويعمم بالخطاب ولا يخص طائفة دون طائفة، وأن لا يشافه بذم قوم أو الإنكار على شخص، بل يعرض مثل أن يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ ولا يتكلم بسقط وهزل.

ويحسن الحسن، ويقبح القبيح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يكون إمعة.

وأما الغاية التي يلمحها: فينبغي أن يزور في نفسه صفة المسلم في أعماله وحفظ لسانه، وأخلاقه، وأحواله القلبية، ومداومته على الأذكار، ثم ليحقق فيهم تلك الصفة بكمالها بالتدريج على حسب فهمهم، فيأمر أولاً بفضائل الحسنات، وينهى عن مساوئ السيئات في اللباس والزي والصلاة وغيرها، فإذا تأدبوا فليأمر بالأذكار، فإذا أثر فيهم، فليحرضهم على ضبط اللسان والقلب، وليستعن في تأثير هذه في قلوبهم بذكر أيام الله ووقائعه من باهر أفعاله وتصريفه وتعذيبه لأمم في الدنيا، ثم بهول الموت، وعذاب القبر، وشدة يوم الحساب، وعذاب النار، وكذلك بترغيبات على حسب ما ذكرنا.

وأما استمداده: فليكن من كتاب الله على تأويله الظاهر، وسنة رسول الله المعروفة عند المحدثين، وأقاويل الصحابة والتابعين، وغيرهم من صالح المؤمنين، وبيان سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولا يذكر القصص المجازفة فإن الصحابة أنكروا على ذلك أشد الإنكار، وأخرجوا أولئك من المساجد، وضربوهم؛ وأكثر ما يكون هذا في الإسرائيليات التي لا يعرف صحتها، وفي السيرة، وشأن نزول القرآن.

وأما أركانه: فالترغيب والترهيب، والتمثيل بالأمثال الواضحة، والقصص المرققة، والنكات النافعة، فهذا طريق التذكير والشرح.

والمسألة التي يذكرها: إما من الحلال أو الحرام، أو من باب آداب الصوفية، أو من باب الدعوات، أو من عقائد الإسلام.

فالقول الجلي أن هناك مسألة يُعَلِّمُهَا، وطريقاً في تعليمها.

وأما آداب المستمعين: فأن يستقبلوا المذكر، ولا يلعبوا، ولا يلغطوا، ولا يتكلموا فيما بينهم، ولا يكثروا السؤال من المذكر في كل مسألة، بل إذا عرض خاطر فإن كان لا يتعلق بالمسألة تعلقاً قوياً أو كان دقيقاً لا يتحمله فهوم العامة فليسكت عنه في المجلس الحاضر، فإن شاء سأله في الخلوة، وإن كان له تعلق قوي كتفصيل إجمال وشرح غريب فلينتظر حتى إذا انقضى كلامه سأله.

وليعد المذكر كلامه ثلاث مرات، فإن كان هناك أهل لغات شتى والمذكر يقدر أن يتكلم على ألسنتهم، فليفعل ذلك، وليجتنب دقة الكلام وإجماله.

وأما الآفات التي تعتري الوعاظ في زماننا فمنها عدم التمييز بين الموضوعات وغيرها، بل غالب كلامهم الموضوعات المحرفات، وذكرهم الدعوات والصلوات التي عدها المحدِثون من الموضوعات.

ومنها: مبالغتهم في شيء من الترغيب والترهيب.

ومنها: قصهم قصة كربلاء والوفاة وغير ذلك، وخبطهم فيها.

(٣)

وصايا مهمة لطالب الحق

وأنا أوصي طالب الحق بأمور:

منها: أن لا يصحب الأغنياء إلا لدفع مظلمة عن الناس، أو بعث عامتهم على الخير؛ وهذا وجه التوفيق بين الأحاديث الدالة على ذم صحبة الملوك وبين ما صحبهم كثير من العلماء البررة.

ومنها: أن لا يصحب جهال الصوفية، ولا جهال المتعبدين، ولا المتقشفة من الفقهاء، ولا الظاهرية من المحدثين، ولا الغلاة من أصحاب المعقول والكلام، بل يكون عالماً صوفياً زاهداً في الدنيا، دائم التوجه إلى الله، منصبغاً بالأحوال القلبية، راغباً في السنة، متتبعاً لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وآثار الصحابة، طالباً لشرحها وبيانها من كلام الفقهاء المحققين المائلين إلى الحديث عن النظر، وأصحاب العقائد المأخوذة من السنة الناظرين في الدليل العقلي تبعاً، وأصحاب السلوك الجامعين بين العلم والتصوف غير المتشددين على أنفسهم المدققين زيادة على السنة، ولا يصحب إلا من اتصف بهذه الصفات.

ومنها: أن لا يتكلم في ترجيح مذاهب الفقهاء بعضها على بعض، بل يضعها كلها على القبول بجملة، ويتبع منها ما وافق صريح السنة ومعروفها، فإن كان القولان كلاهما مخرجين اتبع ما عليه الأكثرون، فإن كانا سواء فهو بالخيار، ويجعل المذاهب كلها كمذهب واحد من غير تعصب.

ومنها: أن لا يتكلم في ترجيح طرق الصوفية بعضها على بعض، ولا ينكر على المغلوبين منهم، ولا على المتأولين في السماع وغيره، ولا يتبع هو نفسه إلا ما هو ثابت في السنة ومشى عليه أصحاب العلم من المحققين الراسخين. والله الموفق والمعين.

تم البحث بحمد الملك الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
المقدمة	٩
١ـ النية الصالحة في طلب العلم وتعليمه	١١
٢ـ فضيلة الاشتغال بالعلم وتعلمه وتعليمه والحث عليه	١٥
المقصد الأول: في آداب المتعلم في نفسه ونحو أستاذه ودراسته	١٩
١ـ علو الهمة في طلب العلم	٢١
٢ـ الحرص على الوقت في تحصيل العلم	٢٤
٣ـ معرفة طالب العلم قدر العلم الذي يطلبه وشعوره بأنه مرشح لوراثة الأنبياء وإمامة الأمة وقيادتها	٢٧
٤ـ التفرغ للعلم وحذف العلائق والعوائق	٣٠
٥ـ الصبر على الطلب وعدم الفتور فيه	٣٢
٦ـ أن يتخير من الأقران الصالحين الذين يساعدونه في الطلب ويحذر من صحبة غيرهم	٣٦
٧ـ ضرورة تلقي العلم عن المشايخ المتقنين الصالحين	٣٨

الموضوع **الصفحة**

٨ـ صفة العالم الذي يُتلقى عنه العلم واختيارُه..... ٤٢
٩ـ التدرج في التعليم والتعلم..... ٤٥
١٠ـ اعتناء الطالب بحفظ ما ينفعه في حاله ومستقبله ٥٠
١١ـ الاعتناء بمطالعة الدرس وتكراره ٥٣
١٢ـ مذاكرة العلم ٥٥
١٣ـ اللسان السؤول وحسن المسألة..... ٥٧
١٤ـ تعلم القدر اللازم من العلوم الرياضية والعقلية والاجتماعية ٥٩
١٥ـ الاعتناء بتعلم اللغات الأجنبية ٦١
١٦ـ المقصود من تعلم العلم وثمرته العمل به والتأدب بالآداب الإسلامية..... ٦٣
١٧ـ مجمل ما يحتاج إليه طالب العلم من الخصال. ٦٦
المقصد الثاني: آداب المعلم في نفسه ونحو طلابه ٧١
١ـ آداب المعلم في نفسه ٧٣
٢ـ آداب المعلم نحو طلابه..... ٧٧
ـ من أهم ما يجب على المعلم نحو المتعلم..... ٧٧
٣ـ طريقة إلقاء الدرس..... ٨٣
٤ـ أهمية الذكاء في طلب العلم..... ٨٥

الموضوع **الصفحة**

٥ـ تربية الطالب على العمل بالعلم وعلى رعاية آدابه..... ٨٦
٦ـ التدرج مع الطلبة في التربية والسلوك..... ٨٩
٧ـ تحسين المربي للحسن وتقبيحه للقبيح في مجالسه..... ٩١
٨ ـ التربية على الترفع عن حطام الدنيا وعن أهلها..... ٩٢
٩ـ التعلية من همة الطالب ٩٤
١٠ـ التأكيد على الطلاب في قراءة سير العلماء الربانيين ٩٧
١١ـ الإنصاف في البحث والرجوع إلى الحق..... ٩٩
١٢ـ مراجعة النقول من المصادر الأصلية والتثبت فيها..... ١٠١
١٣ـ تحري الأخبار القوية والأحكام المعتمدة..... ١٠٤
١٤ـ تربية الأستاذ تلاميذه على قول لا أدري ١٠٥
١٥ـ البحث العلمي والدقة فيه والاعتناء بدراسة الكتب الدقيقة ١٠٧
١٦ـ تربية استعداد النقد في الطالب مع التربية على الأدب فيه، وتدريبه على رعاية
أدب الحوار وأدب الخلاف ١١٠
١٧ـ معايشة طالب العلم عصره، وما يترتب عليه من الفوائد ١١٣
١٨ـ الالتزام بمنهج جماهير الأمة والحذر من شذوذات العلماء ١١٥
١٩ـ إقرار أهل كل مذهب وبلد على ما هم عليه من العلم والعمل وعدم التعصب
للمذاهب والمشارب..... ١١٨

الموضوع **الصفحة**

المقصد الثالث: منهج تنشئة طالب العلم وتكوينه ١٢١

١ـ ضرورة المنهج لتنشئة طالب العلم وأهدافه..... ١٢٣

٢ـ سرد مواد المنهج المتكامل لكل المراحل ١٢٦

٣ـ التخصص..... ١٣٥

٤ـ المقررات للمراحل المختلفة ١٣٧

الخاتمة ١٤٣

١ـ شرائط العالم الرباني المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه ١٤٥

٢ـ آداب التذكير والوعظ ١٤٧

٣ـ وصايا مهمة لطالب الحق ١٥٠

فهرس المحتويات ١٥٣

❊ ❊ ❊